لورنس والعرب

وهو خلاصة أخبار الثورة العربية في وجه الأتراك أثناء الحرب العالمية الأولى

تأليف

شاكر خليل نصار

الكتاب: لورنس والعرب

الكاتب: شاكر خليل نصار

الطبعة الأولى: ١٩٣٠

الطبعة: ٢٠٢٢

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة - جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ – ٣٥٨٦٧٥٧٦ – ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.bookapa.com E-mail: info@bookapa.com

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

خليل، نصار، شاكر

لورنس والعرب / شاكر خليل نصار

– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٢١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٦ – ٤٣٣ – ٩٩١ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٣٠٩١٦ / ٢٠٢١

لورنس والعرب

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

أقدم إلى القراء هذا الكتاب الذي يتضمن في صفحاته القليلة خلاصة أخبار الثورة العربية في وجه الأتراك أثناء الحرب العالمية العظمى، وما قام به ذلك الرجل الإنجليزي المشهور الكولونيل لورنس من الأعمال والخطط من يوم التحاقه بالجيوش العربية قرب جدة إلى دخوله دمشق منتصرا.

وقد نشرت هذه المقالات تباعا في النشرة الأسبوعية، وكان قصدي بها أولا أن لا يتجاوز عددها خمسًا أو ستًا، ولكن ما كادت المقالتان الأوليان تنتشران بين قراء الجريدة، حتى بدأت تأتيني رسائل التشجيع، طالبة إلي أن أسهب في الموضوع؛ فنزلت عند طلب القراء وجعلتها ثماني عشرة مقالة، ولم أصل إلى المقالة العاشرة حتى اقترح علي عدد من أصدقائي أن أجعلها في كتاب خاص؛ لكي يطلع غير قراء النشرة أيضًا على أخبار ما كان يجري في جوارنا أثناء الحرب العظمى، أيام كنا في ظلام دامس من جهة الأخبار الصحيحة، فنزلت مرة أخرى عند طلب الأصدقاء المخلصين، وجمعت المقالات في هذا الكتاب بعد أن أضفت إليها بعض الرسوم.

ولا أرى لي بدا من أن أذكر المصادر التي اعتمدت عليها في وضع

هذه المقالات وهي كما يأتي:

(١)الجرائد والمجلات الغربية السيارة.

(2) **Dead Towns and Living Men, by Mr. Woolley** (**pp. 74 – 177**)

(3) **St. Nicholas Magazine, Nos. July, August, September, and October, for 1927**

(4) **Revolt in the Desert, by T, E. Lawrence**

فعسى أن يجد القراء في كتابي هذا الفائدة واللذة؛ فأشعر أنني قمت نحوهم بخدمة هي غايتي الوحيدة في وضع هذا الكتاب.

شاكر نصار

من هو لورنس؟ وزيارته الأولى للشرق

في أوائل حزيران من سنة ١٩١٦ عندما كان العالم المتمدن شعلة من نار يخوض غمار حرب لم يعرف مثلها التاريخ، سافر شاب إنجليزي من مصر إلى جدة عبر ميناء مكة على شواطئ البحر الأحمر، وكانت تلك السفرة واسطة لاتصاله بالعرب الذين كانوا في ثورة على الأتراك منذ ذلك الحين إلى أن وضعت الحرب الكبرى أوزارها ذلك في سنة ١٩١٨ كان ذلك الشاب الإنجليزي توماس إدوارد لورنس (والذي اشتهر بعد ذلك باسم الكولونيل لورنس) اليد اليمنى للملك حسين وأولاده: فيصل، وزيد، وعبد الله، وعلي في تلك الثورة التي كانت سببا لاندحار الأتراك في كل البلاد العربية، والتي كانت على الأقل الحصاة التي ساعدت على رجحان كفة الميزان في الحرب، فحالف النصر الحلفاء، وعبس في وجه النمسا وألمانيا وتركيا، وكان من شأن ذلك ما كان مما يعرفه القارئ الكريم.

وقد آلينا على نفسنا أن ننشر بكل اختصار في سلسلة من المقالات أخبار تلك الثورة ذاكرين – على الأخص – ما قاساه ذلك الشاب الإنجليزي في صحراء بلاد العرب، حيث كان عليه أن يركب الهجين عوضا عن القطار والسيارات، وأن يلبس العباءة والكوفية والعقال عوضا عن القبعة والثوب العسكري، وأن يأكل لحوم الجمال والغزلان والحيوانات البرية عوضا عن اللحوم المقددة والمآكل الفاخرة، وأن يشرب القهوة العربية المرة عوضا عن الشاي والبسكويت والكعك، بدأ في ثورته في جدة

على شواطئ البحر الأحمر وانتهى بها في بساتين دمشق حينما دخلها منتصرا مع جيوشه العربية.

ولا بد لنا قبل أن نبدأ في سرد أخبار الثورة من أن نقول كلمة عن ذلك الشاب قبل اتصاله بالشريف الحسين وأولاده، خاصة بعد أن أصبح اسم لورنس على شفاه الكثيرين في البلاد العربية والأقطار الغربية.

بدأ لورنس مغامراته، وهو في سن الصبا حين كان يتوق إلى القيام بأعمال يتفوق بها على رفقائه، تسابق مرة مع أفراد جماعته في تسلق أحد الجدران قرب بيته فبلغ مستوى لم يبلغه سواه من الأولاد، ولكن زلت به القدم فسقط على الأرض.

ولما نهض وجد أنه لا يقدر على المشي لأن ساقه كانت قد كسرت من تأثير السقطة، ولكن ذلك لم يثن فيه العزم ولا أقعد منه الهمة، بل ظلت نيران المغامرة تغلي في صدره حتى تمكن وهو شاب أن يضع اسمه في قاعة المشاهير في إنجلترا بين أسماء أبطال مثل: داريك، وكليف، ونلسن، ورايلي، وغوردن.

وأخبار هذا الشاب في البلاد العربية تفوق روايات ألف ليلة وليلة، فإنها تصف ما لاقاه لورنس في تأليف جيش منظم من عرب البادية الذين لا يعرفون في الحروب سوى الغزوات، ولم تألف طباعهم التنظيم والخطط الحربية.

وبعد أن خمدت نيران الحرب، أجلس لورنس الحسين ملكا على

العرش العربي، وفيصلا على عرش دمشق، ولكن لم يطل الوقت حتى غادر فيصل دمشق من وجه الجيوش الفرنسية إذا اختلفت السياستان، واضطر قسرا إلى مغادرة البلاد إلى العراق، حيث نصب ملكا، وغادر الملك حسين بلاده من وجه ابن سعود الذي جاء من نجد واجتاح الحجاز وضمه إلى ملكه، وعين الأمير عبد الله أحد أنجال الحسين حاكما على شرقي الأردن.

عمل لورنس كل هذا قبل أن يجتاز الثلاثين من عمره، ومما يزيد في رونق أخباره ومغامراته أنه لا يزال حيا يعمل مستترا تكتنفه الأقاويل والتكهنات؛ فالبعض يقولون أنه يعمل الآن في الجيش الهندي كنفر بسيط، والبعض الآخر يقولون أن له يدا في إشعال نار الثورة في بلاد الأفغان، وعلى كل حال فإننا نحب أن نطلع على ما فعل ذلك البطل في بلاد العرب مدة سنتين متواليتين، وإلى القارئ بعضا من القسم الأول من حياة لورنس.

انحدر لورنس من عائلة كانت تسكن أولا على شواطئ أيرلندا الغربية، ومن تلك العائلة نفسها ظهر ثلاثة أبطال يحملون هذا الاسم، وقد بلغوا شهرة واسعة في التاريخ الإنجليزي، أولهم: السير روبرت لورنس الذي رافق ريكاردوس قلب الأسد إلى فلسطين في الحروب الصليبية، ومثل دورا مهما في حصار مدينة عكا في ذلك الوقت، والاثنان الآخران هما الأخوان: السير جون لورنس (وكان حاكم الهند العام) والسير هنري لورنس (حاكم عدة مقاطعات في الهند الوسطى سابقا) وكانت قاعدته مدينة لكنو، وهذا

الأخير فقد حياته في ثورة قامت في تلك المدينة.

كان والد لورنس على جانب عظيم من الثروة، ولكن قبل أن يرى لورنس النور فقدت العائلة ثروتها واضطرت إلى مغادرة مسكنها والمجيء إلى مقاطعة كارنافون في ولاية وايلس، حيث نشأ عدد ليس بقليل من رجال بريطانيا العظام منهم: لويد جورج.

كان لورنس رابع أخوته وأصغرهم، ولكي يتمكن الوالد من إرسال أولاده إلى المدرسة ذهب بهم إلى المدينة المشهورة بجامعتها وعلومها "مدينة أكسفورد"، وفيها تلقى لورنس علومه الابتدائية، وكان منذ حداثته ميالا إلى المغامرات؛ فكان يذهب مع جماعة من أصحابه إلى نهر قريب من المدينة، تقول عنه الكتب أنه غير صالح للسفر، ويسيرون فيه قاربهم مسافة بعيدة، وبذلك أظهروا فساد ما كانت تدعيه الكتب، وكان أيضًا ميالا جدا إلى كتب الأبطال وسيرهم فاستظهر جيدا أخبار الحروب القديمة من أيام الكتاب المقدس إلى أيامنا الحاضرة، وكان دائما يلهج بذكر رجال كـ "سنحاريب" و"الإسكندر الأكبر"، و"زنفون"، و"نابليون"، و"ولنجتون"، و"واشنطن"، وغيرهم من الأبطال، وكان يعيد قراءة رحلاتهم وحروبهم حتى أصبح يعرف دقائق كل معركة من المعارك القديمة والحديثة، ولكنه لم يدر في ذهنه قط أنه سيصبح يوما ما بطلا كهؤلاء الأبطال الذين أعجب بهم وأضاف اسمه إلى أسمائهم.

دخل لورنس جامعة أكسفورد، وبدلا من أن يبقى فيها أربع سنوات لإتمام برنامجها ونيل شهادتها، تمكن من ذلك في ثلاث سنوات فقط، ونال

شهادة بكالوريوس في العلوم، ثم أراد أن ينال شهادة أستاذ في العلوم فبدأ في الدرس، وإذ أن هذه الشهادة تقتضي كتابه رسالة مطولة في موضوع يختاره الكاتب؛ صمم لورنس على تأليف كتاب تتجلى فيه روح البحث والتنقيب بدل النقل والنسخ، فعزم على تتبع خطوات الفرسان في الحروب الصليبية من إنجلترا إلى أبواب القدس في فلسطين، وتأليف كتاب عن تاريخهم وأخبارهم، ولما عرض هذا الفكر على والديه لم يوافقا عليه أولا، ولكن أخيرا اضطرا إلى النزول عند رغبته لما رأياه فيه من الذكاء وسرعة الخاطر فأعدوا له كمية قليلة من المال تبلغ نحو مائتي جنيه مصري أو ١٠٠٠ دولار أمريكي، وأرسلاه مع جماعة من السياح الذين يزورون الأقطار الشرقية للتفرج على آثارها التاريخية وأماكنها المقدسة.

وفي الوقت المعين أقلعت السفينة التي تقل جماعة السياح، وكان عليها سيدات غنيات وأسياد كرام تلمع نظاراتهم على عيونهم؛ فاتجهت السفينة نحو الشرق وتابعت سيرها إلى أن ألقت مراسيها في ميناء بيروت، وما كادت تطأ قدما لورنس البر السنوري حتى اختفى عن العيان وترك جماعة السياح لشأنهم وذهب إلى أحد الأسواق حيث تباع الملابس الوطنية، وهناك نزع ثيابه الإفرنجية، وارتدى الأثواب العربية، كما أنه طرح نعليه عن قدميه وسار حافيا في أسواق بيروت، ولم يكن أحد ليعرف عنه شيئا في ذلك الوقت إلا ما كان يكتبه عن نفسه لوالديه في إنجلترا.

وسار في هندامه هذا مشيا على الأقدام مجتازا الشواطئ البحرية إلى السهول والجبال في الداخل، وساكن القرويين والعرب الرحل، وبذلك

تمكن من درس اللغة العربية والتكلم بها بطلاقة اللسان، وكان من آن إلى آخر يأتي إلى مدينة تاريخية فيقف أمام أطلالها متأملا؛ فيرجع بالفكر إلى الزمن حيث كانت الجيوش الصليبية تشعل نيران المعارك مع جيوش صلاح الدين الأيوبي الشجاع.

وقضى في البلاد السورية مدة سنة تقريبا، ولما عاد إلى أهله وجد أنه بقي معه نصف الدراهم التي جاء بها، وذلك لأنه بالطريقة التي عاش بها تمكن من المعيشة بنفقات قليلة جدا، غير أنه لم يفعل ذلك للتوفير والاقتصاد، ولكنه أحب هذه العيشة البسيطة، وظن بحق أنها تمكنه من درس البلاد درسا مشبعا، فيقف على الأمور عن كثب ولا ينقلها على عهدة الرواة كما يفعل الكثيرون من السياح.

لورنس يحفر الآثار التاريخية حول كركبيش

رجع لورنس إلى بلاده بعد أن جال في أنحائنا الشرقية مدة سنة كاملة، تمكن فيها من الامتزاج بالسكان ومعاشرتهم ومساكنتهم، ودرس عاداتهم وأخلاقهم، ثم وضع الكتاب الذي طلب منه وضعه لنيل شهادة أستاذ في العلوم، وجاء الكتاب نفسيا حتى أن العلماء المستشرقين أحلوا مؤلفه محلا لائقا به، فاتسع نطاق شهرته وعرف بين أبناء بلاده باطلاعه على الأحوال الشرقية.. ولما أراد المتحف البريطاني أن يرسل البعثات لدراسة التمدن القديم في البلدان المختلفة انتدب لورنس ليكون عضوا في تلك البعثات، وعين له عملا شاقا جدا يتطلب علما وحكمة وسياسة؛ فأرسله إلى إحدى الجزر في البحار الاستوائية لدرس الأحوال فيها وتقديم تقرير ضاف عن حفريات سرية كانت تقوم بها إحدى الحكومات في تلك الغابات السحيقة، وقد كتم المورد الذي نستقي منه هذه المعلومات اسم الجزيرة واسم الحكومة التي كانت تقوم بالحفريات هناك، وذلك لأمور سياسية.

ولما وصل لورنس إلى تلك الجزيرة، وجد الوطنيين في حرب مع الغزاة الأجانب الذين كانوا يقومون بالحفريات، فاتخذ جانب الوطنيين وناصرهم على أعدائهم الأجانب، ونظم صفوف أولئك القوم الجهلاء وأخذ يدير معاركهم، وإذ كانوا على وشك القيام بهجوم إلى الغابات حيث كان الغرباء يحفرون.. علَّمهم لورنس أن يأخذوا طوافات خشبية، ويربطوها الواحدة بالأخرى، ثم يسيروها في النهر إلى أن تصبح على مقربة من أسطول

الأجانب؛ هناك يجمعون عليها حطبا ثم يشعلون النار فيها ويتركونها تسير في النهر؛ ففعلوا كما علمهم لورنس، وكانت النتيجة أن الطوافات المشتعلة عندما ارتطمت ببواخر الأجانب الخشبية نقلت إليها النار فأحرقتها كلها.

وهذا يدلنا على أن لورنس لم يكن فقط رجل علم، بل كان أيضًا رجل سياسة وحكمة ومغامرة، وبعد أن درس أحوال الجزيرة واطلع على حفريات المنقبين المضادين له، رجع إلى لندن وقدم التقرير الذي طلب منه تقديمه.

وبعد ذلك بوقت قصير.. أرسلته جامعة أكسفورد مع بعثة من العملاء لدرس العاديات والآثار التاريخية في مدينة كركميش في بلاد الشرق الواقعة بين العراق وسوريا، ولا يخفى على القارئ أن تلك البلاد غنية بالآثار التاريخية لأنه نشأ فيها تمدن قديم بلغ من التقدم شأوا بعيدا.

قبل المسيح بألفي سنة تقريبا نشأ في وادي النيل تمدن راق جدا، هو تمدن الفراعنة بناة الأهرام وهيكل الكرنك، وفي الوقت نفسه نشأ تمدن آخر على ضفاف الرافدين (دجلة، والفرات) وهو تمدن آشور الذي ظهر في مدينتي بابل ونينوى – وبين هذين التمدنين نشأ تمدن ثالث هو تمدن الحيثيين الذي لا يزال – حتى في الوقت الحاضر – سرا في كثير من مناحيه أمام علماء التاريخ والعاديات، لدرس هذا التمدن قدم لورنس مع جماعته، وكان في ذلك الوقت لا يزال في شرخ شبابه نحيف الجسم، ولكنه قوي العضل سريع الحركة ذو همة عالية ونشاط يستخف بالأخطار.

وصل إلى أطلال كركميش؛ فحط عصا الترحال واختار الفعلة من

أبناء البلاد، وكان بينهم العرب والأكراد والمغول والكلدان وغيرهم.. وبعبارة أخرى كان فعلته مجموعة مذاهب مختلفة عداوات وأحقاد، ولكن بفضل سياسته ومعرفته لأحوال البلاد تمكن من جمع هؤلاء الأقوام في علم واحد، وبرغم ميلهم إلى الحرية تمكن من حصرهم في عمل يقتضي الساعات الطويلة، لا بل الأيام والسنين، وكان مع كل ذلك محبوبا من الجميع ومعتبرا لدى السكان لأنه لم يكن متكبرا، بل كان مستعدا أن يشاطر مساكينه في كل شيء يقدر عليه.

وكان اختباره في حفر آثار كركميش، يعده لعمل أعظم في السنين التالية، ولكن على غير علم منه، وكانت الأيام تخبئ له مغامرات جديدة مهمة يصبح بفضلها مشهورا في التاريخ، كان عليه أن يستعد لقيادة الجيش العربي الثائر على الأتراك في الحرب العالمية الكبرى، وسنذكر في مقالات تالية اختباراته في تلك القيادة التي تشبه أخبارها حكايات ألف ليلة وليلة فضلا عن أنها حقيقية واقعية وبطلها لا يزال حيا.

عندما كان لورنس يعمل في مقر الآثار كان الألمان يستعملون كل الطرق لتوسيع نطاق مستعمراتهم ونفوذهم في العالم أجمع؛ فبعد أن وطدوا أقدامهم في شرقي إفريقيا وغربيها، ومدوا سلطانهم على كثير من جزر البحار الجنوبية، سعوا إلى مد سكة حديدية تصل برلين بالبصرة مارة في وسط أوروبا والبلقان، ثم القسطنطينية ثم آسيا الصغرى، إلى أن تنتهي في البصرة العراقية على شواطئ الخليج الفارسي، وكان القصد من ذلك السيطرة على التجارة في جنوبي آسيا الذي كان في ذلك الوقت لا يزال

تحت النفوذ الإنجليزي، ونجح الألمان في سعيهم نحو غايتهم حتى وصلوا إلى بعد ٤٠٠ ميل من بغداد، وكانت الحكومة الإنجليزية غافلة عن المساعي الألمانية؛ فلم تكترث للأمر أولا، بالرغم من أن لورنس كان ينبهها إلى الأضرار التي تلحق بإنجلترا من جراء سكة حديدية ألمانية كهذه..

ولكن صغر سن لورنس كان عائقا له، فلم تسمع له الحكومة الإنجليزية ولم تعره أقل اهتمام، ولكن أراد لورنس أن يعمل منفردا فقام بعمل على سبيل التفكهة، وهو أنه أخذ عدة أنابيب ووضعها على بغال وذهب بها ليلا إلى تل يشرف على المكان حيث كان المهندسون الألمانيون يعملون، وركزها على الصخور هناك، وكان مشهد الأنابيب على تلك الصخور يشبه المدافع؛ فظن الألمان أن الإنجليز يحصنون ذلك التل؛ فأرسلوا رسائل إلى برلين والأستانة يعلمون الحكومتين بالأمر.

ولم يكن للمهندسين الألمانيين من الحكمة في معاملة الوطنيين ما كان للورنس، ولهذا كان عليهم أن يقاوموا صعوبات كثيرة وإضرابا عن العمل، ومرة قام الفعلة على رؤسائهم الألمان يطلبون قتلهم، وإذ عرف لورنس بالأمر ذهب إلى مخيم الألمان وتمكن بدهائه وحكمته من تهدئة غضب الفعلة الوطنيين وإرجاعهم إلى العمل.

ومما يروى عنه ذلك الوقت أنه إذ كان مرة يتجول في البلاد، وكان يلبس لباسا عربيا، شاهد في الصحراء رجلا غريبا فتقدم إليه وسأله الطريق؛ فأرشده إليها ذلك الرجل الغريب، ولكن لما أدار لورنس ظهره ومشى هجم عليه ذلك الرجل وطرحه إلى الأرض، وإذ كان لورنس تعبا لم

يقدر على المقاومة في وجه ذلك الكردي الجبار، فاستسلم له؛ فأخذ هذا مسدسا من جنبه ووضع فوهته في أذن لورنس وضغط على زنبرك المسدس فلم ينطلق؛ فطرح المسدس جانبا، وانهال على لورنس بالضرب بالحجارة حتى تركه مغمى عليه فسلبه ما كان معه وتركه لشأنه..

وبعد مدة قصيرة أفاق لورنس من غيبوبته، ووصل إلى قرية مجاورة وأخبر شيوخها بالأمر، وكانوا يحترمونه ويحبونه؛ فأرسلوا رجالهم في أثر اللص فقبضوا عليه، وأرجعوا للورنس أمتعته وانهالوا على اللص بالضرب حتى تركوه بين الحياة والموت.

ومرة أخرى كان يتجول في الصحراء، فصادف مروره مرور جماعة من اللصوص قطاع الطرق؛ فألقوا عليه القبض وسلبوه ثم اقتادوه إلى مأواهم في قمة جبل مجاول، هناك تركوه يحرسه اثنان من جماعتهم والآخرون ذهبوا لقطع الطريق.

ولما كان الظهر، واشتد الحر، تناول الخفراء الغداء، واستسلم أحدهم لسلطان النوم، وأما الثاني فكان خارجا يتمشى ذهابا وإيابا، ولما أدار ظهره هجم عليه لورنس وكمم فاهه ثم هرب من سجنه ومعه بندقيتان وعدد من الخرطوش، وكمن وراء صخر عال.. فلما جاءت الجماعة وعرفت بالأمر سعت وراءه للقبض عليه فكان يطلق عليها رصاص بندقيته دون أن يخطئ حتى أجهز على كثير من العصابة، والباقون هربوا من أمام رصاصه فنجا بنفسه.

هذا ما روي عن ذلك الرجل في رحلته الثانية إلى الشرق، وأما ما

رواه عنه الآخرون من الأخبار والقصص التي حدثت له مع الجيش العربي أثناء الثورة فسنأتي على ذكره في مقالات تالية، وإن يكن ما ذكرناه الآن يـدعو إلى الدهشـة؛ فـإن مـا سـنذكره أفعـل في الـنفس وأدل علـى صـبر واحتمال وحكمة ودهاء.

اجتماع لورنس بفيصل لأول مرة

مما لا يخفى على القارئ، أن الشريف حسين بن علي وأولاده، وهم: فيصل، وزيد، وعبد الله، وعلي.. يمتون بالنسب إلى النبي العربي ﷺ، ولهذا كانوا يشعرون أنهم أولى بالخلافة من الأتراك المغتصبين، وكانوا يتحينون الفرص للتخلص منهم وتحرير الشعوب العربية من جور الحكم التركي، وما جاء صيف سنة **١٩١٤** حتى أعلنت الحرب الأوروبية الكبرى بين الحلفاء من جهة ودول الاتفاق من جهة أخرى.

وكانت تركيا في جانب دول الاتفاق فأخذ الشريف وأولاده يخابرون الإنجليز للقيام بثورة عربية واسعة النطاق.. يطردون بها الأتراك من العراق وجزيرة العرب وفلسطين وسوريا، ثم يؤلفون دولة عربية ذات خلافة إسلامية؛ فتمت الصفقة بين الإنجليز والعرب، وفي سنة **١٩١٥** هب الحسين وأتباعه؛ فثاروا على الأتراك واحتلوا عنوة مكة والطائف وجدة.

والمدينة الأولى هي أحد الحرمين وهناك ولد النبي مُحَمَّد ﷺ، والثانية مدينة واقعة شرقي مكة، والثالثة ميناء جدة على البحر الأحمر، وهي حلقة الوصل بين الحجاز والعالم الخارجي؛ وذلك لأنه محظور على أي كان من المسيحيين الدخول إلى مكة، كما أنه من الخطر الشديد أن يسافر مسيحي ما في فلوات البلاد العربية ما لم يكن مجهزا بالتوصيات من أولياء الأمر هناك؛ فقناصل الدول الأوروبية يسكنون جدة وفيها يقيم الشريف حسين

مفوضا من قبله لإتمام المعاهدات والعمال السياسية بينه وبين الدول الأجنبية، وإذا اقتضت الحال ينزل بنفسه ثم يعود إلى مقره الرئيسي في مكة.

وكان الجيش الإنجليزي المخيم في مصر يقدم للثوار العرب – في أول الأمر – الذخائر الحربية من بنادق ورصاص وقذائف؛ فمضت السنة الأولى ولم يتمكن العرب من الاستيلاء على غير هذه الأمكنة الثلاثة، لا بل كانت قوتهم تضعف إلى درجة أصبح يخشى معها رجوع الأتراك على البلدان العربية.

ولكن كان بين الضباط الإنجليز في مصر جماعة رأت أنه إذا اهتمت الحكومة الإنجليزية بالثورة العربية، كان لها من ورائها فائدة عظيمة؛ فاستعملت هذه الجماعة ما لديها من سلطان لإقناع المفوض السامي الإنجليزي في مصر أن يوفد إلى جدة كاتبه الأول في دائرة الأعمال الشرقية؛ فنجحوا في مهمتهم وأرسلوا رونالدو ستورس على ظهر باخرة إلى جدة ليقابل مفوض الشريف ويتباحث معه في شأن الثورة العربية.

وكان بين الضباط الصغار في مصر رجل اسمه لورنس، فهذا كان صديقا حميما لستورس؛ إذ أن الاثنين قضيا معا زمن التلمذة في جامعة أكسفورد؛ فلما علم لورنس برحلة ستورس إلى جدة طلب من رؤسائه أجازة أسبوعين؛ فنجح في طلبه ورافق صديقه ستورس إلى جدة، وكان في ذاك الحين لا يعلم شيئا عن الثورة العربية سوى ما كان يقع على مسامعه من أخبارها مصادفة.

وما كادت السفينة تلقي مراسيها في ميناء جدة، حتى سارع الشريف عبد الله بن الحسين إلى مقابلة ستورس مندوبا من قبل أبيه؛ فاجتمع الاثنان وتباحثا في أمر الثورة وحالة الجيوش العربية، وكان لورنس يصغي بانتباه، وعند نهاية الحديث رأى بثاقب نظره أنه إذا قيض للعرب قائد فيه الصفات التامة للقيادة تمكنوا من الانتصار على الأتراك دون صعوبة، ولكن من أين له هذا القائد؟.. فهو ليس في شخص عبد الله، لأن هذا الرجل طلق المحيا باسم الثغر لين العريكة حسن المعشر، ولكنه ليس ذا قوة يسيطر بها على أتباعه ويحملهم على خوض غمار الحروب.

وعرف أثناء الحديث أن للشريف أولادًا آخرين هم: فيصل، وزيد، وعلي؛ فقرر الاجتماع بهم ليتعرف إليهم شخصيا، وطلب من عبد الله أن يسمح له بزيارة معسكر فيصل في داخل البلاد؛ فأجابه هذا أنه لا يجوز ذلك؛ فقال له لورنس – ونفسه تشتعل شوقا للأسفار في البلدان العربية – أنه ليس سهلا على الجيش العربي أن يحصل على مساعدة الإنجليز إذا كان هؤلاء يتلقون أخبار الثورة من شاهد عيان سمع الأخبار وتحققها بنفسه، فلانت قناة عبد الله أمام هذا القول، وقال له: "تمهل ريثما أخاطب أبي".

وهنا لا بد من أن نخبر القارئ أن الشريف الحسين كان قبل ذلك قد استدعى مهندسين مسلمين من مصر، ومد سلكا تليفونيا بين مكة وجدة، فرفع عبد الله التليفون إلى فيه، وسأل أباه عن إمكانية سفر لورنس إلى معسكر فيصل؛ فأجاب بالسلب.

وكان الشريف حديدي الرأي يصعب إقناعه؛ فعبثا حاول الابن أن يقنع الأب، ولكن لم يرد لورنس أن يبقي السهم الأخير في جعبته؛ فطلب إلى ستورس أن يتوسط له لدى الشريف، وبعد جدال طويل بين مندوب المفوض السامي الإنجليزي وبين الشريف حسين، رضي هذا أن يسافر لورنس لمقابلة فيصل في معسكره.

وما طال الوقت حتى كان لورنس على ظهر هجينه يقطع المفاوز في الصحراء، وإلى جانبه عدد من الخدم، إلى أن وصل إلى معسكر فيصل فتعرف إليه وخاطبه؛ فرأى فيه الشخص المطلوب، ورأى أيضًا أن فيصلًا كان يبغي جمع جيش عظيم كاف لانتزاع المدينة المنورة من يد الأتراك، ولكن لم يتحقق ما كان يحلم به، وأخذ العرب الملتفون حوله ينسحبون إلى قراهم الواحد بعد الآخر، وكان الأتراك في الشمال يعدون العدة لاسترجاع ما خسروه من البلدان العربية.

لم يألف العرب الحروب المنظمة، ولا تعودوا النزال في وجه جيش دولي يزحف ثابتا، ولكنهم يعرفون الغزو فيهجمون الهجمة الأولى كالآساد، ولا ترجعهم عن قصدهم قوة ولو كانت قوة الجان، ثم تسكرهم خمرة النصر فيكتفون بالغنيمة والسلب ويرجعون إلى مقرهم، ولا يخفى أن هجمات كهذه لا تعود بفائدة في وجه جيش زاحف أو جيش يهاجم المدن والحصون، ولهذا كان أتباع فيصل في سأم من هذه الحالة، وكانوا ينسلون خفية إلى قراهم تاركين لرئيسهم عددا قليلا من أتباعه المخلصين.

ولم تكن هذه الحالة لتثني عزم لورنس، بل قرر أن يوجد من العرب

قوة لمناضلة الأتراك وإضعافهم، ولم يقصد في الدرجة الأولى إعطاء العرب استقلالهم، بل أن يخفف عن الحلفاء قوة الأتراك في الساحات الأخرى الحربية، وأظهر ميله الشديد إلى الثورة العربية، ووعد فيصلا بالمساعدة الإنجليزية الجدية بعد أن رأى فيه القائد الحقيقي لتلك الثورة التي سيقومون بها، كما أن فيصلا رأى في وجه لورنس علامات الثبات والذكاء، فتمكنت بين الاثنين أواصر الصداقة، ورجع لورنس إلى رؤسائه وفي نفسه أشياء عن الثورة العربية؛ فأقنعهم بوجوب مساعدة السكان في الصحراء، ولفت أنظارهم إلى أهمية الثورة المذكورة في مجريات الحرب العالمية وتأثيرها على الساحات الأخرى.

ولما اختلى لورنس بنفسه بعد رجوعه من معسكر فيصل، أخذ يفكر في الخطة التي سيتبعها في محاربة الأتراك؛ فقرر طردهم من كل شواطئ البحر الأحمر، ثم السير شمالا إلى "الوجه" ثم "العقبة"، ثم قطع خط الرجعة على الأتراك المقيمين في "المدينة" وما جاورها من القرى.

وبعد أن وثق لورنس من أن رفاقه القواد في مصر أصبحوا يرون رأيه في الثورة، رجع إلى صديقه فيصل ليمده بالآراء والخطط، وليبعث في جيشه أمل الحياة بعد اليأس والفشل، وكان يعمل في الجيش العربي كنفر بسيط حسب الظاهر، ولكن في الحقيقة كان حلقة الوصل بين فيصل والإنجليز، وكان العامل القوي في إثارة حماسة العرب مدة السنتين اللتين سكن أثناءهما بينهم.

وفي هذه المناسبة لا يسعنا إلا القول أن الحالة التي كانت فيها جيوش

فيصل عند زيارة لورنس المعسكر لأول مرة، وروح اليأس التي كانت مخيمة عليها وإنعاش الآمال بالفوز والمساعدة الإنجليزية.. كل ذلك دفعنا إلى دعوة لورنس "موقد نيران الثورة العربية"، ولا أحد ينكر أنه كان حجر الزاوية في بناء نجاحها كما سنرى في المقالات التالية.

احتلال الرابغ والينبع والوجه

ذكرنا في المقال الماضي أن لورنس وضع خطة حربية، كان عليه إذا تتبعها حركة فحركة؛ أن يحول القوة العربية إلى شواطئ البحر الأحمر فيحتل بها الموانئ المنتشرة هناك من جدة في الجنوب إلى العقبة في الشمال، وفي الوقت نفسه أراد أن يترك فصيلا من الجيش العربي في داخل البلاد؛ ليوهم الأتراك أن القوة العربية متجهة إلى المدينة. وبعد أن عزم على اتباع هذه الخطة أعلنها على رؤسائه وعلى الأمير فيصل؛ فوافقوا عليها.

وكان الجيش التركي في ذلك الوقت يزحف جنوبا من المدينة لاسترجاع مكة وجدة، ولهذا أرسل لورنس زيدا أصغر أنجال الشريف حسين مع جماعة من أتباعه لمناوشة الأتراك على الطريق، ولإيهامهم أن القوة العربية مرابطة حول مكة، ثم زحف الأمير فيصل ووراءه الجيش العربي متجها إلى الشمال إلى أن اقترب من الميناء الأول في الشمال بعد الرابغ، وهو ميناء الينبع، ولما سمعت الحامية التركية بقدوم الجيش العربي ولت هاربة لا تلوي على شيء؛ فدخل الجيش العربي مدينة الينبع دون مقاومة، ولم ترق هناك نقطة واحدة من الدم.

ولما استقر المقام بالجيش العربي بدأ لورنس بدرس الخطة لاحتلال الميناء الآخر الشمالي بعد الينبع، وهو ميناء "الوجه"، وبما أن الحامية التركية كانت أقوى من تلك في الينبع كان لا بد من الاستعانة بالأسطول

الإنجليزي الذي كان مرابطا في البحر الأحمر؛ فسعى لورنس لدى الأميرال، وتمكن من حمل قواد المدرعات على الاشتراك في العمل؛ فاتفقت القوتان البرية والبحرية على اللقاء في مكان يقرب من "الوجه" يدعى حبان، وهناك تلقي المدرعات قذائفها من البحر، والجيش يهاجم المدينة من البر؛ فيتم النصر على أهون سبيل.

فسار الجيش من الينبع إلى نخل المبارك، ثم وادي أويس، ثم بير الوحيدة، ثم سمنة، ثم أبو زربيات، ثم القرنة.. وبسبب صعوبة السفر في الصحراء تأخر وصول الجيش البري إلى المكان مدة يومين فقط؛ فخاف لورانس أن تفشل الخطة وترتد القوة البحرية المهاجمة إذا هي تفردت وحدها بالهجوم، ولكن ما العمل وليس من طريقة للاستعاضة عن اليومين اللذين خسرهما الجيش في سفره، ولما اقترب فيصل وجيشه إلى شرم حبان سمع أصوات المدافع المتواصلة؛ فأيقن إذ ذاك أن المدرعات البحرية لم تنتظر وصول الجيش بل استقلت في العمل، وهنا لا بد من أن نذكر كلمة عن زحف الجيش العربي على مدينة الوجه، عندما سمع أصوات المدافع البحرية، وذلك حسب ما ذكره لورنس نفسه.

زحفنا في جيش يبلغ الآلاف عدا، ودخلنا واديا سقطت عليه أمطار كانون فأمرع وعلاه كساء أخضر من العوسج الذي نتأ من جانبي الطريق، حتى كادت الأغصان تتصل بالأغصان، وكان علينا أن نحني الرؤوس خوفا من أن تفقأ عيوننا الأشواك النابتة في تلك الأغصان، كما أنه كان علينا أن نجمع ثيابنا تحت سوقنا لئلا تعلق بها فتمزقها.. ثم هبت في وجوهنا ريح

صرصر كادت تذهب بأبصارنا، ولكن مع ذلك سار الجيش وكانت أصواته تملأ جنبات ذلك الوادي حتى صدق فيه قول المتنبي:

خميس بشرق الأرض والغرب زحفه   وفي أذن الجوزاء منه زمازم

وصلنا إلى آبار أبو زريبات، فألقينا عصا الترحال وانتثر عقدنا المنظوم؛ فتفرق القوم جماعات جماعات، وكان الليل قد أرخى سدوله فدقت الخيام وعلت النيران وساد الهرج والمرج، وبعد مدة اكتنفنا الضباب المتكاثف وهبط علينا حتى لاصق الأرض، وأصبح بنور النيران كأنه كساء أحمر، ثم علا الدخان أعمدة إلى الفضاء كأنه أساس بناء مشيد على جلبة الجيش غير المنظور تحت الضباب الكثيف، وفي تلك الساعة أظهرت عجبي من قوة الجيش فقال عودة ابن زويد: "هذا ليس جيشا بل هو العالم بأسره زاحف إلى قرية الوجه"؛ فسررت بهذا التصريح الذي يبعث الأمل في الصدور.

وإذ كنا في تلك الليلة مجتمعين في خيمة الأمير فيصل نتباحث في شؤون الثورة، دخل علينا دون استئذان الشريف ناصر من شرفاء المدينة، فوقف فيصل للقائه وطوق عنقه بذراعيه، وناصر هذا أول من أطلق بندقيته إشعارا باحتدام نار الثورة، وبقي كل هذه المدة أمينا في الخدمة إلى أن كان الأخير في إطلاق بندقيته في بلدة مسلميه قرب حلب، أي بعد انتهاء الثورة تمامًا.

وبعد أن مضى الهزيع الأول من الليل استسلمنا لسلطان النوم، وفي صباح اليوم التالي استيقظنا من نومنا لمتابعة أعمال النهار، وكان جلبها ملقى على قائد الثورة العام الأمير فيصل؛ فكان يتلقى الرسائل ويجيب عليها بواسطة كاتبه الخاص إلى أن هجم الليل التالي بجيوشه، ثم في الصباح صدرت الأوامر بالزحف فسرنا النهار بكامله مجتازين الأودية إلى أن أسدلت حجب الظلام، وما كاد يستقر بنا المقام حتى سمعنا صوت هجوم عنيف من أحد أطراف الجيش.

وبعد الاستعلام عن حقيقة الأمر وجدنا أن بعض الأفراد من قبيلة جهينة المنضمة إلى جيشنا قد شاهدوا أغنام ترعى قرب المكان الذي أنخنا فيه؛ فتحركت في داخلهم غريزة الغزو فهجموا على تلك الأغنام وساقوها إلينا، ولكن حالما علم فيصل بالأمر، وكان ذلك ساعة هجوم قبيلة جهينة أمرهم بالرجوع فلم يرجعوا فأطلق عليهم النار إرهابا؛ فسقط أحد الفرسان المهاجمين لكي يوهم رفاقه أنه أصيب فيرتدوا إلى الوراء، ولكن لم يجد ذلك نفعا، وسار المهاجمون في طريقهم إلى أن رجعوا بالغنيمة فلقيهم فيصل، وأعمل فيهم الضرب، وأمرهم أن يعيدوا المسلوب إلى أصحابه؛ فكان لهذا العمل أحسن وقع في نفوس القبيلة المهاجمة، وهي قبيلة "بلى" التي أصبحت من حلفائنا بعد ذلك.

وفي صباح اليوم التالي اتجهنا نحو البحر لكي نستطلع أخبار المدرعة التي وعدتنا بجلب المياه إلينا إلى حبان؛ لأن المياه هناك كانت قليلة، ولما أشرفنا على الشاطئ رأينا المدرعة "هاردن" تنتظرنا وعنابرها ملآنة ماء

عذبا؛ فأخذنا نستقي منها بواسطة قوارب صغيرة؛ فسقينا أولا البغال ثم الجيش، وبقي عدد من الرجال عطاشا يحومون حول الأوعية طالبين المياه، وكان قد قضي عليهم عطشا لو لم يلبهم البحارة بما يبلل الشفاه على الأقل.

وبعد أن هدأت الحركة، وكان قسم من الجيش قد ارتوى وقسم آخر يعلل الآمال بمياه أكثر (وما أضيق العيش لولا فسحة الأمل) ركبت زورقا وذهبت إلى ظهر الباخرة، فأخبرني قائدها أن المدرعات البحرية رأت أن الجيش البري قد تأخر عن موعده مدة يومين؛ فخافت أن يعرف الأتراك بالأمر فيهربوا سالمين، ولهذا تفردت في العمل فألقت القنابل ثم أرسلت قوة منها لاحتلال المدينة فقضي الأمر على أهون سبيل.

وكان قبل إطلاق القنابل أن جاء إلى الحامية في الوجه أحمد توفيق بك القائد التركي، وألقى عليها الأوامر أن تقاوم حتى آخر نقطة من دمها، ثم ولى هاربا إلى خارج منطقة الخطر، وكانت الحامية تحت أوامره لو أنها لم تر أن العدو يفوقها عددا، وكان عدد رجالها يبلغ المائتين؛ فتركوا مراكزهم وولوا الأدبار هاربين.

ولما اتصلت هذه الأخبار بالجيش المخيم في البر اشتعلت في صدورنا نار الحماسة، وهب كرجل واحد للحرب والنزال، فسار في طريقه نحو الوجه على غير انتظام، وكان ذلك بعد انتصاف الليل.. وعند انبثاق الفجر وقفنا في الطريق وجمعنا الشمل وسرنا بانتظام كجيش مدرب، وسير كهذا يصعب جدا على العربي الذي تأبى نفسه التقيد بشيء ما حتى

النظام.. ولما اقتربنا من المدينة، وكانت المناوشات لا تزال سائرة بين القوة البحرية المحتلة وفرق الأتراك الهاربة، رأيت في جيشنا قبيلة عجيل ينزلون عن مطاياهم ويعرون أجسادهم من المنطقة فما فوق، ولما سألت عن السبب قالوا إن هذه القبيلة تلقى العدو على هذا الشكل؛ لأنهم يعتقدون أنه إذا خرج الفرد وهو عار كان ذلك أنظف لجرحه فلا يعود عليه خوف من الالتهاب.. وكان مشهد هؤلاء الفرسان السمر الأجساد العراة الصدور والسواعد والرؤوس من أبهج المشاهد التي رأيتها في حياتي، ثم تبعنا المسير إلى أن دخلنا مدينة الوجه آمنين بفضل القنابل البحرية، ثم تفرق الجيش جماعات جماعات: منها ما كان يستقر للراحة، ومنها ما كان يسير للنهب والسلب وهذه كانت الأكثرية.. كيف لا، والعرب البدو يغزون لمجرد السلب والنهب، فكيف بهم بعد النصر في معركة تركت أمامهم الأسلاب غنيمة باردة.

مهاجمة العقبة

قلنا في المقال الأسبق أن الأتراك كانوا في ذلك الوقت قد أعدوا العدة، وأرسلوا فصيلا من الجيش وكتيبة من الفرسان لاسترجاع ما خسروه من الأماكن حول مكة والطائف وجدة، وكانت هذه القوة التركية قسما من الفيلق الرابع الذي كان مرابطا في سوريا وفلسطين تحت قيادة أحمد جمال باشا السفاح التركي.. الذي رفع على أعواد المشانق أصدق الوطنيين من مسلمين ومسيحيين، وأهلك سكان لبنان جوعا، مع أن القمح كان متوفرا بكميات كبيرة في داخل البلاد.

وكانت القوة التي أرسلها الأتراك إلى بلاد العرب، تحت قيادة فخري باشا؛ فاتجهت جنوبا في سيرها الخط الحديدي الحجازي، وكان قصدها الأساسي الأولى المحافظة على ذلك الخط لأنه أفضل الطرق التي تسهل لها إرسال المؤن والنجدات إذا اقتضت الحال.

وبعد أن وصلت القوة في سيرها إلى المدينة اجتازتها جنوبا نحو مكة، ولما وصلت إلى نصف الطريق بين الحرمين فاجأتها الأنباء أن العرب الذين كان يظنهم الأتراك مرابطين حول مكة قد اتجهوا ناحية البحر الأحمر، وضربوا في شواطئه شمالا فاحتلوا الرابغ والينبع وأم اللج والوجه، ولم يبق أمامهم إلا العقبة؛ فقلقت أفكار القائد التركي لهذه الأنباء، ووقف مدة لا يدري ماذا يعمل:

أيستمر في سيره إلى محاصرة مكة ويترك وراءه القوة العربية تفعل ما تشاء، وقد تقطع عليه خط الرجعة؟..

أم يرجع على أعقابه قانعا من الغنيمة بالإياب، ويحصن مركزه في الشمال حول المدينة؟

وأخيرا مال إلى اتباع الفكرة الثانية؛ فرجع بجيشه إلى المدينة ليتمتع برياضها الغناء، بعد أن قاسى الأمرين في فلوات الصحراء وسباها وهكذا الحامية التركية التي كانت مرابطة في الوجه ولت الأدبار هاربة إلى الداخل ومنضمة إلى جيش فخري باشا في المدينة.

وبعدت القوتان الواحدة عن الأخرى فبقي العرب في الوجه وتحصن الأتراك في المدينة، وساد السكون أياما كانت فرصة مناسبة للورنس لأن يرتاح من وعثاء السفر ويضع الخطط للمعارك القادمة، ولكنه عاد فرأى أنه يجب عليه السفر إلى مصر لإطلاع مركز القيادة العامة على ما يجري في تلك الأقطار النائية، وبعد أن أتم مهمته وأقنع الرؤساء الإنجليز بوجوب مساعدة الثورة.

وبعد أن أبان لهم أهميتها قفل راجعا إلى مخيمه في الوجه فرأى فيصلا قد وطد قدمه في تلك الأنحاء، واكتسب إلى جانبه كل القبائل التي كانت مخيمة بين الوجه ومكة، وأطلعه على ميل الإنجليز في مصر إلى مساعدة الثورة قدر ما تسمح لهم الأحوال؛ فطرب الجميع لهذه الأنباء وحولوا وجوههم شطر القبائل الشمالية لاكتسابها إلى جانبهم.

يسكن إلى شمالي الوجه ثلاث قبائل عربية قوية يجب اكتسابها قبل المسير، وهذه القبائل هي الحويطات وبنو عطيه وعرب الرولا، وما كاد لورنس وفيصل ينهيان الخطط للمعارك القادمة حتى دخل الخيمة رئيس عشائر بني عطيه، وهي أقرب الثلاث إلى المخيم، ثم جاء بعد ذلك الأمير نوري الشعلان شيخ عرب الرولا، وبقي عرب الحويطات مبهمي الموقف.

ومما زاد في الإبهام أن تلك القبيلة كانت منقسمة على نفسها بسبب فتنة أهلية، ولكن لم يطل المقام حتى قدم إلى مخيم فيصل رئيسا الحزبين في عرب الحويطات، وكان أحدهما عودة رئيس أبي طي وأشهر الفرسان بين عرب البادية؛ فقبل فيصل كل هذه الوفود بكل رصانة وتعقل واكتسبها إلى جانبه بالسياسة والمواعيد وأقسمت هي أمامه يمين الإخلاص للثورة العربية وعاهدوه على بذل دمائهم في سبيل الحرية.

وبينما كان فيصل يحالف القبائل ويعقد معها المعاهدات، أرسلت القيادة الإنجليزية من مصر إلى الوجه قائدين إنجليزيين أحدهما المهندس الخبير: نيو كومب، والثاني القائد الشجاع: غارلند؛ فهذان أخذا معهما جنديا عربيا مشهورا بشجاعته وبسالته اسمه "مولود"، وضموا إليهم فرقة من العرب، وساروا شرقا إلى الخط الحديدي شمالي المدينة، وأخذوا يناوشون الأتراك هناك فيقطعون الخط ثم يرتدون إلى الصحراء، وبعد أن أقلقوا راحة الأتراك مدة وقع المهندس نيو كومب في الأسر، ورجعت القوة الصغيرة إلى مقرها الأساسي في الوجه.

وضع لورنس وفيصل خططا كثيرة لمهاجمة الأتراك، ولكنها لم ترقهما،

وبينما لورنس ذات يوم مستغرق في الفكر تفتقت في ذهنه خطة جديدة؛ فصرخ من فرحه كما صرخ أرخميدس (عندما كان يعمل في حل المعضلة الناتجة عن أن الأجسام في الماء أخف منها في الهواء، وبينما هو في الحمام واضعا ساقيه في الماء تفتق له الحل فصرخ "وجدتها وجدتها") وإلى القارئ الخطة التي تفتقت للورنس فاستطارت نفسه فرحا.

عرف لورنس أن الجيش العربي مؤلف من جنود لا يعرفون الحروب المنظمة ولا الثبات في وجه الجيوش مدة طويلة، ولكن من الجهة الثانية هم أقوياء الشكيمة أشداء البأس في المعارك التي لا تستغرق وقتا طويلا، ولهذا قرر محاربة الأتراك حربا غير منظمة؛ فيهاجمهم هنا، ثم يرتد إلى مكان آخر فيهاجمهم فيه ثم يختفي عن الأنظار بغتة، ثم يظهر في مكان ثالث، وبهذه الطريقة يضطر الأتراك إلى إبقاء عدد وافر من الجنود منتشرين في مساحة واسعة تجب عليهم حمايتها، وهذا يضعف القوة كثيرًا، وفضلًا عن ذلك فإنه كان بإمكان لورنس أن يحارب الأتراك شمالي المدينة ويقطع عليهم خط الرجعة فيضطرون إلى إخلاء المدينة المنورة، ولكنه لم يرد ذلك، بل فضل أن يبقى الأتراك محافظين على أحد الحرمين والخط الحديدي، وأن يواصلوا إرسال المؤن والذخائر حتى إذا ما احتاج الجيش العربي إلى شيء هاجم القطر السائرة جنوبا، وأخذ منها ما يحتاج إليه، ثم ترك لها الطريق مفتوحا، هذه هي الخطة التي قرر لورنس على اتباعها، وهي التي أوصلته إلى النصر النهائي.

إن الناظر إلى الخارطة يرى أن البحر الأحمر في طرفه الشمالي ينقسم

إلى قسمين تمتد بينهما إلى البحر صحراء سيناء؛ فالقسم الغربي هو خليج السويس والترعة حيث تمر البضائع بين القارتين: آسيا من جهة، وإفريقيا الشمالية من جهة ثانية، والقسم الآخر كان مشهورا في الأيام الماضية، وأما الآن فقد نسجت عناكب الإهمال عليه خيوطها حتى أصبح وليس فيه إلا مدينة نائية لا تمر بها البواخر إلا نادرا وهي مدينة العقبة.

قبل مضي آلاف السنين كانت هذه البقعة من الأرض مسرحا للبواخر والتجارة.. هنا كانت أساطيل سليمان تلقي مراسيها، ومن هنا كانت تقلع مسافرة إلى هندوستان وبلاد كاثاي (اسم قديم لبلاد الصين) لتجلب منها البضائع والأموال.

وفي ذلك الخليج بنى الأتراك في السنة الأولى من الحرب الحصون والقلاع، وجعلوها مرجعا للجيش الذي أعدوه للهجوم على مصر ووضعوا على جبل يشرف على مدينة العقبة المدافع البرية القوية، حتى أنه أصبح من المستحيل الاستيلاء على المدينة من البحر، ولم تكن مناعتها بحرا أقل منها برا؛ لأن المدينة واقعة في صحراء ولا يوصل إليها إلا من مضيق جبلي حصنه الأتراك جيدا ووضعوا فيه الحامية الكافية.. ولسهولة تحصين المكان، ولأنه على أبواب قناة السويس ومصر كان من أهم المواقع الحربية في الشرق الأدنى، إلى هذا المكان حول لورنس أنظاره وقرر الاستيلاء عليه بخطة حربية لا تفقده عددا وافرا من الجنود.

في أوائل شهر أيار سنة ١٩١٧ جرد لورنس حملة من جيشه البدوي للقيام بغزوة تتوقف على نجاحها نهاية الثورة، وكان القائد لهذه الحملة

الشريف ناصر يسير إلى جانبه الكولونيل لورنس وعودة، سار الجيش لا يحمل زادا سوى ما كان يضعه كل فارس في سرج مطيته، كما أنه لم يكن هناك ضباط متشحين بالبزات العسكرية اللامعة، بل كان الجميع يلبسون الكوفية والعباءة حتى القائد نفسه كان يرتدي لباسا بسيطا يماثل لباس أصغر جندي في الحملة.

بين سوريا وشمالي الحجاز يمتد خط حديدي يبتدئ في دمشق وينتهي في المدينة، وقد بنى الأتراك هذا الخط مدعين أنه واسطة لتسهيل زيارة الحرمين على الحجيج، ولكن الغاية الحقيقية منه إرسال الجنود إلى البلاد العربية إذا اقتضت الأحوال. وأهم محطة على ذلك الخط الشمالي المدينة هي معان، ولكي يوهم لورنس الأتراك أنه يقصد مهاجمة معان لا العقبة، اتجه نحو الخط الحديدي بالقرب من معان، وهناك وضع تحت الخطوط الحديدية كمية من الديناميت وأوصل إليها شرارة كهربائية من جهاز خاص؛ فانفجر الديناميت مقتلعا الصخور ومرسلا الحديد والتراب إلى الهواء، وإذ كان ذلك أول مرة رأى عودة فيها الديناميت رقص طربا وأخذ يغني ويزغرد.. ثم تراجع الجيش المؤلف من ألف هجان تقريبا ودقوا الخيام في وادي سرحان، وهنا لا بد لنا من أن نذكر للقارئ أن الرحلة من الوجه شمالا كانت صعبة جدا، ليس على لورنس فقط، بل على العرب أنفسهم إذ كان عليهم أن يقطعوا مفازات لا ماء فيها ولا نبات، وكان على الرجال والجمال أن يقضوا أياما عديدة طويلة دون أن يشربوا شرابًا أو يأكلوا طعامًا..

وبعد مسير أسبوعين وصلوا وادي سرحان، حيث كان عرب الحويطات مخيمين، وهم قبيلة عودة الذي كان يرافق الحملة.. بقي الجيش في ضيافة عرب الحويطات عدة أيام، ثم تابعوا المسير غربا نحو العقبة ومروا في بلاد تقطنها عدة قبائل عربية مختلفة الأميال والمشارب، ولا رابط بينها أو مشابهة سوى طريقة معيشتهم، وهنا هجمت فرقة من الجيش على حامية تركية في إحدى المحطات تدعى الفويلحة وقتلتها عن بكرة أبيها.. وإذ علم القائد التركي بذلك أرسل نجدة من معان للأخذ بثأر حامية الفويلحة والقضاء على القوة العربية التي كان يعتقد حينذاك أنها ستهاجم معان نفسها، ولكن الجيش العربي تغلغل في قلب الصحراء واختفى عن الأبصار..

وبعد أن جالت المفرزة التركية في الصحراء خيمت في مكان يدعى أبا اللسان، حيث توجد عدة آبار، وعرفت الكشافة العربية بمخيم الأتراك في أبي اللسان فجاءوهم ليلا، وأحاطوا بهم من الجهات الأربع، وأخذوا يلقون عليهم الرصاص من وراء الصخور؛ فكان الأتراك يسقطون اثنين اثنين دون أن يروا أثرا للعدو، فقلق القائد التركي لذلك وقرر اختراق خط العدو والنجاة بما بقي معه من الجنود.. وكان النهار حارا جدا، والمحاربون من الفريقين في أشد الحالات عطشا وتأثرا من الحرارة، وبينما هم في تلك الحالة جاء عودة فرأى لورنس يتفيأ ظل صخر عال فأخبره عن شجاعة عرب الحويطات في هذه المعركة؛ فأجابه لورنس مازحا: "أجل هم يطلقون رصاصا كثيرا، ولكنهم لا يصيبون الهدف، وبذلك نخسر الذخائر ولا

نستفيد بها".

فأثر هذا الكلام في نفس عودة الذي أخذ يرغي ويزبد، ثم دعا رجاله وأمرهم أن يعتلوا متون الهجان فأتمروا بأمره، ثم سار أمامهم هاجما نحو مخيم الأتراك، ولما رأى لورنس ذلك دعا الرجال الآخرين أيضًا وأمرهم أن يتبعوا عودة رجاله ففعلوا، وكان لورنس في مقدمتهم معتليا ظهر مطيته وبيده مسدسه، وبينما هم في حالة هجوم انطلق المسدس خطأ وأصاب رأس البعير الذي كان راكبا عليه؛ فسقط الحيوان كأنه حجر جامد، وسقط لورنس أمامه واجتازته مطايا المهاجمين، ولو لم يسقط أمام الحيوان الميت لكان قضي عليه تحت أخفاف الخيول الهاجمة كالسهام المنطلقة.

الاستيلاء على العقبة

أسفرت المعركة عن انهزام الأتراك، وخرج عودة من ميدان الكفاح منتصرا؛ فأخذته هزة الطرب وغدا يصيح ويزغرد منشدا مديح رجاله وشجاعتهم، ثم أقبل إلى لورنس، وذكره بالكلام الذي وجهه إليه قبل المعركة.

والحق يقال أن الشجاعة التي أبداها عودة ورجاله في معركة أبي اللسان تدعو إلى الإعجاب، فإنه خرج من المعركة وثيابه ممزقة برصاص، وقد سقط تحت جوادين، ولكنه لم يصب بأذى مطلقا، ولو أن المتنبي رآه في تلك الحالة لكان أنشد فيه بيتيه المشهورين:

وقفت وما في الموت شك لواقف   كأنك في جفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة   فوجهك وضاح وثغرك باسم

وسقط من العرب في تلك المعركة قتيلان فقط: واحد من عرب الرولا، والآخر من بني شراري

"وبعد السلب والنهب أسرنا من بقي من الأتراك حيا، ودققنا الطنب (الخيام) للراحة، ولكن لم يمض الوقت الطويل حتى أقبل إلينا عودة يصيح بنا ألا نقيم في المكان طويلا بل أن نجد في السير خوفا من أن يرجع إلينا الأتراك بقوة عظيمة للانتقام، أو يظننا عرب الحويطات جيش العدو

فيصلنا نارا حامية، وبعد الأخذ والرد تمكن عودة من إقناعنا بالرحيل، مع أننا كنا بحاجة شديدة إلى الراحة بعد تلك المعركة الحامية الوطيس.

سرنا كل ذلك الليل إلى أن ظهر الصباح، وإذ كنا قد خسرنا نحو عشرين جملا في المعركة، والجمال الباقية أصبحت ضعيفة وعاجزة عن حمل ما كانت تحمله الجمال المفقودة، اضطررنا إلى أخذ من كانت جروحهم غير خطرة من الأتراك، وتركنا للقضاء والقدر نحو عشرين جريحا خطرا قرب نهر عذب المياه، وجمع ناصر لهؤلاء الجرحى أردية وأغطية ترد عنهم برد الليل القارس وتركناهم لشأنهم يتألمون.

إن العربي يعتقد أن أفضل شيء في الغنيمة هو ارتداء ملابس العدو، ولهذا أصبح جيشنا الآن كأنه جيش تركي منظم بما كان على أفراده من الألبسة التركية التي نزعوها عن الجرحى والموتى الأتراك.

على أن النصر لا يقوم على ربح المعارك فقط، ولكنه يقوم أيضًا على توفر الزاد لدى الجيش المحارب، وبعد أن سرنا في الصحراء مسافة، وكان عددنا قد تضاعف تقريبا رأينا أننا سنموت جوعا إذا لم نتدبر الأمر، ومن أين نأتي بالقوت لجيش كهذا مؤلف من محاربين وجمال وأسرى يعدون بالمئات، وكنا حين سرنا للمعركة نحمل من الزاد ما يكفينا مدة قصيرة فقط، وبعد التفكير رأيت أن نهاجم أقرب مخيم تركي، وقد قررنا على التوجه إلى العقبة للاستيلاء عليها؛ إذ لا شك أننا إذا فزنا نجد فيها من الزاد ما يكفي جيشنا مدة طويلة.

ولكن هل الاستيلاء على العقبة سهل؟.. ودونه معاقل وحصون

ومفاوز صخرية، فضلا عن أن العقبة أهم ميناء على شواطئ البحر الأحمر، والاستيلاء عليها قد يغير تاريخ الشرق الأدنى، ولهذا قد يكون أن الأتراك قد جمعوا فيها قوة لا يُستهان بها؛ فعمدت إلى الخريطة ووجدت أن بيننا وبين العقبة حصونا ثلاثة مهمة الأول: الغويرة، والثاني: الكثيرة، والثالث: حدره.. زد إلى هذه كلها المفاوز الجبلية المحجرة التي يصعب اجتيازها، ولكن المثل يقول "إذا لم يكن لك ما تريد فأرد ما يكون" ولم يبق أمامنا إلا اتباع الخطة القاضية بمهاجمة العقبة، فإذا نجحنا كان النصر حليفنا، وإذا فشلنا فإننا لا نخسر شيئا إذ أننا على كل حال معرضون للموت جوعا بسبب قلة الزاد.

وكان بين الأسرى ضابط لم يكن على وفاق مع الأتراك، فسر بالأسر وقدم نفسه ترجمانا وكاتبا لنا؛ فأكرمناه وأحسنا معاملته، وكان يكتب لنا الرسائل التي أرسلناها إلى قواد المعاقل الثلاثة طالبين إليهم أن يستسلموا وإلا فلا نكفل لهم الحياة إذا حمي وطيس المعركة، ولكن إذا سلموا لنا الآن اكتفينا بأخذهم أسرى وأبقينا على حياتهم وأرسلناهم إلى مصر آمنين.

وكان قرب الغويرة ابن جاد، وهو شيخ يرأس قبيلة قوية، وكان يترجح بين القوتين التركية والعربية، وإذ كنا نحن المنتصرين في المعركة الأخيرة انضم إلى جيشنا، وأسر القوة التركية التي كانت مخيمة هناك؛ فخفف عنا عناء محاربتها، وجاء إلينا بكلام مدح وتبجيل، وأخبرنا أن الأتراك وعددهم مائة وعشرون أصبحوا أسراه.

وبقي بيننا وبين العقبة حاميتان أقربهما إلينا (الكثيرة)، وقد رفضت

طلبنا إليها بالاستسلام؛ فعزمنا على الحرب، وأشرنا إلى ابن جاد أن يقوم بالهجوم ليكون له ذلك الشرف الأسمى، ولأن رجاله لا يزالون أشداء لم يضنهم التعب، وارتأينا أن يكون الهجوم ليلا تحت جنح الظلام، فاعتذر قائلا أن الليلة بدرها كامل، وخير له أن يؤجل الهجوم.. وأراد بذلك أن يتخلص من المعركة، ولكن لم نترك له مجالا للاعتذار إذ قلنا له أن الليلة مع أن بردها كامل سيصيب القمر خسوف مدة لا يستهان بها، وسيغشى الظلام الأرض – حسب ما هو مدون في مذكرتي – وعندما جاء الليل أصاب القمر خسوف تام؛ فهجم العرب هجمة واحدة كانت كافية لربح المعركة، وكان العرب يطلقون البنادق ويضربون بالسيوف، وفي الوقت نفسه يدقون على التنك لتخليص القمر من الوحش السماوي الذي يبتلعه.

كان بين الأسرى في هذه المعركة الأخيرة ضابط تركي اسمه نيازي بك؛ فجعلناه في ضيافة ناصر لكي نوفر عليه شظف عيشة البدو، ولكن مع كل ذلك لم يكن راضيا؛ فتقدم إلي وقال لي أن أحد الجنود العرب قد شتمه بالتركية، فاعتذرت له وزدت على العذر قائلا: "ولكن ألا تظن أن ذلك الجندي قد سمع نفس الشتيمة من أحد قوادكم، وإلا لما كان تعلمها فهو يرد بضاعتكم إليكم".. ثم أخذ من جيبه كسرة من الخبز يابسة، وقال: "أهذا ما تطعمونه لضابط تركي وقت الترويقة؟"، فقلت: "ليست هذه لترويقتك فقط، بل لغدائك وعشاءك أيضًا، ولربما لمؤونتك طول النهار بكامله غدا، وها أنا من الضباط المقدمين في الجيش البريطاني الذي

لديه قوت إذا لم نقل أكثر من الجيش التركي فبقدره، ومع ذلك فلا أكل أكثر مما تأكل أنت، فضلا عن كوني منتصرا وأنت أسير".

بقي في وجهنا حصن خضرة، وهو الأخير بيننا وبين العقبة؛ فاجتمعنا للبحث واحتكاك الآراء في ماذا يجب أن نفعل، وسمعنا إشاعات رائجة بين العرب هناك أن الأتراك قد أخلوا الأمكنة كلها، ولم يبق منهم فيها أكثر من ثلاثمائة جندي؛ فقر رأينا على إرسال رسل نطلب بواسطتهم أن يستسلم الأتراك لنا، فأبوا أولا وأطلقوا النار على الرسل والبيارق البيضاء التي كانوا يحملونها؛ فعزمنا على مقابلتهم بالمثل، ولكن أحببنا أن نجرب السهم الأخير في جعبتنا فكتبنا إلى القائد كتابا بالتركية نطلب فيه إليه أن يشفق على رجاله ويسلم.

والحقيقة أننا كنا مثلهم قليلي المؤن والذخائر، ثم انسللنا خفية إلى مكان قرب مخيم العدو وطلبنا مقابلة القائد؛ فقدم إلينا وبحثنا في الأمر فقرر الاستسلام لنا عند الصباح.

ولما أقبل الصباح، وتفتقت حجب الظلام، تم تسليم الأتراك بدون معركة، وكان بين المستسلمين مهندس ألماني فتقدم إلي وسألني عما يجري ولماذا هم أسرانا؟ فأخبرته عن الثورة العربية وأننا نقاتل في جانب الحلفاء، وكان إلى ذلك الوقت لا يعرف شيئا عن الثورة العربية في الصحراء، وظن أولا أننا سنقوده مع الأسرى الآخرين إلى مكة، ولكن أخبرته أنه سيذهب إلى مصر؛ فسألني عن السكر هناك، فقلت له أن السكر موجود بكثرة وهو رخيص الثمن أيضًا، فسر بذلك وروح قلبه وطيب نفسه.

وبعد أن استولينا على حصن الخضرة، أخذ جيشنا يتدفق إلى العقبة دون مقاومة لأن العدو جعل كل الحصون والخنادق متجهة نحو البحر؛ إذ كان يظن أننا نهاجم العقبة بحرا، ولكن عندما جئنا إليها من البر لم يكونوا مستعدين لنزالنا فطرحوا سلاحهم وقنعوا من المعركة بالبقاء أحياء.

ولا يخفى على القارئ أننا بعد احتلال العقبة – تلك الميناء التي كانت تزورها في القديم الأساطيل الفينيقية وسفائن سليمان – أصبح جيشنا يعد بالألوف، ولكن لم نجد ما كنا نرجو الحصول عليه من الزاد؛ فقررت الذهاب إلى مصر لطلب بواخر تأتينا بالزاد، وأخرى لتحمل الأسرى إلى مصر.

وبين العقبة والسويس مسافة ١٥٠ ميل خالية من الماء والنبات، سوى مكان واحد يدعى ثمد، فاستصحبت ثمانية من العرب وعلونا متن المطايا، وولينا وجوهنا شطر مصر فاجتزنا المسافة في نهارين وليلتين إلى أن وصلنا إلى آخر قناة السويس من الجهة الجنوبية، وهناك تقدمت وحدي إلى بورتوفيق، وإذ كنت أحن شوقا إلى الاستحمام دخلت فندقا وقضيت عصاري ذلك النهار في جرن الاستحمام، والخدم يوصلونني بالماء البارد للشرب".

وفي اليوم الثاني سافر لورنس بالقطار إلى مدينة الإسماعيلية، وعندما وصل إلى مقصده رأى المحطة تعج بالجنود، وبين الضباط أميرال وجنرال عام؛ فسأل عنه فقيل له هو الجنرال اللنبي قادم لتولي قيادة الحلفاء في الجبهة الشرقية، وسلفه السير أرشيبالد موراي قد دعي إلى لندن.

فسر لورنس بهذا الخبر، لأنه كان قد سمع عن اللنبي وعن أعماله في الجبهة الغربية، وكان لورنس في تلك الساعة لا يزال في لباسه العربي، وكانت قدماه حافيتين ووجهه قد لوحته الشمس؛ فتقدم إلى الأميرال روزلين ويمس وأخبره عما فعل بالأتراك في الصحراء، وطلب إليه إرسال مؤونة وبواخر لنقل الأسرى؛ فسر الأميرال بهذه الأخبار وأسرع فأرسل بارجة حربية إلى السويس، ثم إلى العقبة شاحنة للمؤن والذخائر، وتسربت أخبار الثورة العربية إلى الجنرال اللنبي فدعا إليه لورنس واستخبر عن الثورة العربية، وشد ما كان سروره عندما اطلع على حقيقة الأمر ووعده بالمساعدة اللازمة.

ولم يصدق الأميرال ويمس في وعده فقط، بل تعداه فأنزل ضباطه وأركان حربه إلى البر، وأرسل مدرعاته الخاصة لتحمل المؤن إلى العقبة، كما أنه أعطاهم عددا من المدافع الخفيفة الرشاشة، ومنذ ذلك الوقت أخذت القيادة تنظر إلى الثورة العربية نظرة الاعتبار، وترجو منها نفعا جزيلا.

نسف القطار

وما كادت الجيوش العربية تملأ أسواق العقبة وشوارعها الضيقة، حتى رأى لورنس أن الثورة لم تعد محصورة في الجزيرة العربية، بل تعدتها إلى بلاد فلسطين وشرقي الأردن، وأصبح لا يرى فيها ساحة حربية منقطعة عن غيرها من ساحات الحرب الكبرى، بل رآها جزءًا من ساحة حربية واسعة النطاق تمتد من حدود مصر إلى الجزيرة العربية، ومنها إلى العراق وفلسطين، ولم تعد جيوشها الفرسان العربية فقط بل الجيوش الإنجليز أيضًا المرابطة في مصر تحت قيادة الجنرال الكبير اللنبي، وأطلع لورنس القواد الإنجليز على فكرته هذه فرأوا رأيه وعزموا على إمداد الثورة بكل ما يمكنهم الاستغناء عنه من العتاد الحربي.

فزادت بعد ذلك عزيمة فيصل، ونقل مركز قيادته العامة من الوجه إلى العقبة، وأخذت البواخر والمدرعات الإنجليزية تمخر عباب ذلك الخليج، بعد أن كانت تمخر فيه بواخر سليمان الملك في الزمن الماضي، ولما استقر المقام بفيصل ولورنس وتوفرت لديهما العدد والمؤن أخذا ينظران إلى مهاجمة الأتراك في معان وتجريدهم من كل ما كانوا قد احتلوه من الأراضي حوالي الخط الحديدي الحجازي، ولكن خطوة كهذه تقتضي التروي في وضع الخطة والتدقيق في إعداد القوى المهاجمة؛ لئلا إذا تسرعوا في الهجوم قد يقلب الدهر لهم ظهر المجن فيخسرون في معركة واحدة ما ربحوه في معارك عديدة، فضلا عن أن خطة كهذه يجب أن تتفق مع خطط الجنرال

اللنبي التي كان يعدها لمهاجمة فلسطين وشرقي الأردن دفعة واحدة، ويجلي عنها الأتراك إلى شمالي حلب.

ولهذا عزم لورنس وفيصل على التمهل في الأمر، ولكن ذلك لا يعني ترك العدو لشأنه يحصن القلاع والمواقع الحربية، ويرسل النجدات إلى المدينة وما جاورها من الأماكن والمحطات على طول الخط الحجازي.

وكانت الطائرات الإنجليزية تدفع عن العرب هجمات الطائرات التركية والألمانية التي كثرت الآن، لقلقها على موقف جيوشها، كما أن الجيوش العربية كانت تقوم بمناورات صغيرة لكي تحفظ العدو في شغل شاغل، ولكي توهمه أن العرب لن يهاجموا معان.

ومما لابد من ذكره أن اللنبي وكليتن أخذا يعدان العدة الآن للهجوم العام، جاعلين الجيش العربي الجناح الأيمن من الحملة العامة، وخصصوا له مهاجمة الأتراك في منطقة معان ثم شمالا إلى الأزرق وجبل الدروز، وكليتن المذكور هو الذي اعتمدته الحكومة الإنجليزية بعد الحرب لتسوية الأمور الشرقية العربية فانتدبته لعقد اتفاق مع ابن سعود، ولكنه لم ينجح في ذلك، ثم عين مندوبا ساميا لبريطانيا في العراق، وتوفي هناك في أواسط شهر أيلول.

وبينما كان القواد الكبار يضعون الخطط للهجوم العام، سئمت نفوس الجيش المرابط فقرروا مهاجمة العدو شرقا وقطع الخط الحديدي ولو لمدة قصيرة، وكانت محطة المدورة أقرب المحطات للعقبة وأهمها؛ فجمع لورنس حوله فرقة من الجيش وأخذ كمية من الديناميت وجهازا كهربائيا خاصا

لإشعال الديناميت من مسافة بعيدة.

وكـان بـين الجنـود في العقبـة جنـديان إنجليـزيان أظهـرا ميلهمـا لمرافقـة لورنس في هـذه الحملة؛ فنصـحهما بالعدول عن فكرتهما مبينا لهما وعورة الطريـق وشـظف العيش في الصـحراء وقلـة الطعـام ورداءتـه؛ إذ أن الحملـة تستغرق وقتا ليس بقصير، فضلا عن أن حرارة الشمس شديدة لا يحتملها حتى العرب أنفسهم، وإذا وقع لورنس بسوء كانت العاقبة عليهما وخيمة بسبب جهلهما اللغة العربية، ولكن كل هذه الصعوبات لم تثن لهما عزما، بل قررا مرافقة الحملة.

زحفـت الحملـة بمعـداتها شـرقا، وبعـد مسـيرة يـوم واحـد وصـلت إلى الغويرة، وهنـاك ألقـت عصـا الترحـال لتطلـب الراحـة والمـاء، ومـا لبثـت أن رأت طـائرة مـن طـائرات الأعـداء تحلـق فوقهـا، ثم أخـذت تلقـي عليهـا القذائف فاختبأ الرجال في الصخور إلى أن نفدت المؤن في الطائرة فعادت من حيث أتت، وتابعت الحملة سيرها تحت رحمة حرارة الشمس المحرقة، والإنجليزيان يـذوقان مرارة العذاب دون أن يجرؤا على التذمر،لأنهما جاءا مـن تلقـاء نفسـيهما رغـم مسـاعي لـورنس في دفعهمـا إلى الإقـلاع عـن عزمهما.. وإلى القارئ وصف الرحلة كما وصفها لورنس نفسه:

"وبعـد سـير طويـل بـين صـخور صـلبة ومفـاوز مرملـة وغـدران جافـة، وصلنا إلى مكان تبينا فيه عن بعد غابة من الأشجار فاستأنسنا بها وعزمنا على التهيؤ تحت ظلالها، ولكن عند اقترابنا إليها سمعنا فيها أصوات الخيول ممزوجـة بقهقهـة الضـحك وقرقعـة الـدلاء في المـاء، فانتحينـا ناحيـة ثم دققنـا

الخيام، وأنزلنا الأحمال وأعددنا الأهبة للكفاح، فيما إذا كان القوم من الأعداء، ثم أرسلنا محمدًا مستكشفا؛ فرجع وهو يقول هم من الأنصار وليسوا من الأعداء؛ فسرى عنا، واستعددنا لإضافة القوم عند قدومهم إلينا، وما هي إلا مدة قصيرة حتى عرف القوم بقدومنا وتنسموا أخبارنا، وبعد ساعة من الزمن أقبل إلينا رؤساؤهم شيخ الدراوشة وشيخ الزلاباني وشيخ الزويدة؛ فقضينا وإياهم ساعات سمر وحديث، إلى أن أقبل الهزيع الثالث من الليل فتوسدنا الثرى واستسلمنا لسلطان النوم.

ولما انبثق فجر ١٦ أيلول سنة ١٩١٧ سرنا من وادي السرم شرقا، وكان زعل يقود خمسة وعشرين من النواصرة، وهم فخذ من قبيلة عودة، وكانوا يدعون أنفسهم رجالي حبا بالتباهي والافتخار، وكان مطلق الأعور راكبا ناقة هي أفضل نياق شمالي الجزيرة تدعى "جدهة" وكنت (أي لورنس) راكبا ناقة أخرى تدعى "غزالة" هي الناقة الوحيدة التي كانت تقرب من "جدهة" حسنا وثمنا، فازددت شرفا بقيادة غزالة، وكنت أسير بها بين الصفوف، فأتكلم إلى هذا وأشجع ذاك، وما هي إلا مسيرة يوم أو يومين حتى وصلنا إلى مكان رأينا منه في الأفق شيئا أشبه بالبناء، وكانت تلك محطة المدورة التي جئنا لنسفها وقطع الخط الحديدي فيها؛ فسرنا الهوينى إلى أن بلغنا هضبة قريبة تفصلها عن المحطة هضبة أخرى فأنخنا الجمال في الهضبة الأولى، ثم سرحناها لترعى، وتفرق القوم جماعات جماعات، وجرى كل ذلك بهدوء وسكون لكي لا يشعر العدو بنا، ثم عندما خيم الغسق أخذت زعلا والإنجليزيين وبعض القوم، وسرت إلى الهضبة الثانية، ونظرنا

إلى سفحها؛ فرأينا خيام العدو تحيط بالمحطة إحاطة السوار بالمعصم، ورأينا الحراس يروحون ويغدون ونور نيران الحامية يخترق الشبابيك والثقوب في الخيام، وكنا نسير ببطء كلي لكي لا تكتشف وجودنا كلاب العدو النابح..

أجل إن المسافة قريبة جدا، ولكن المدافع الرشاشة التي كانت معنا لا ترمي قذائفها إلى أبعد من ثلاثمائة متر، ولهذا كان علينا أن نقترب أكثر فتقدمنا، ونحن من شدة الخوف والحذر نكاد نعد نبضات قلوبنا، ثم وصلنا إلى بقعة قررنا أنها المكان المناسب لوضع المدافع والالتجاء إليها حين الحاجة.

ثم تقدمت مع زعل أكثر فأكثر، إلى أن وصلنا إلى مكان تمكنا منه من سماع الجنود الأتراك يتكلمون، ثم رأينا رجلا من الحامية آتيا إلى جهتنا؛ فمشى مسافة ثم توقف وأشعل سيجارته، فرأينا وجهه على ضوء عود الثقاب وتبيناه فإذا به ضابط نحيف البنية، ولما رجع إلى جماعته وقفوا له احتراما وإجلالا.

ثم تراجعنا إلى مخيمنا بعد أن ظهر لنا أن عدد الحامية كان نحو مائتي رجل، بينما نحن لا نزيد عن مائة وستة عشر رجلا، فضلا عن أن بناء المحطة ظهر قويا جدا لا تؤثر فيه مدافعنا الضعيفة، فعزمنا على الانسحاب تاركين المحطة آمنة بسكانها، واتجهنا إلى مكان آخر بين المحطتين حلة عمار والمدورة، وقررنا نسف الجسر هناك.. فأخذت الديناميت والجهاز الخاص المعد له وسرت مع زعل ونفر قليل من الجماعة إلى أن اقتربنا من الجسر،

فنزلت إليه بنفسي وحفرت بين الخطين الحديديين حفرة ليست بصغيرة استغرق حفرها مدة ساعتين، ووضعت فيها إصبع الديناميت وطمرته في التراب لكي لا يراه حراس الأعداء، ثم وصلته بشريط وغطيت الشريط أيضًا بالتراب بطريقة لا يظهر بها أنها الأرض محفورة، وأخذت أتراجع على طول الشريط مغطيا إياه بالتراب، وكنت حافي القدمين لئلا أترك أثرا يراه العدو، ولما وصلت على بعد خمسين ذراعا من الجسر انتهى الشريط؛ ولهذا كان علينا أن نضع رجلا بيده الجهاز ليضغط عليه عندما أعطيه الإشارة المتفق عليها، ولما رجعت إلى رفاقي وأخبرتهم بما فعلت نهض شاب اسمه سالم وتطوع بأن يضغط على الجهاز عندما أعطيه الإشارة اللازمة، وقضيت كل بعد ظهر ذلك النهار أعلمه كيف يمسك طرف الجهاز بيده.

ولكن على غير علم، كان العدو قد رآنا فأرسل إلينا مفرزة من حامية محطة المدورة؛ فانسحبنا أمامها واختفينا عن الأبصار تاركين رجلا واحدا ليحرس اللغم الذي تحت الجسر، ولحسن الحظ رجعت المفرزة حالا إلى المدورة فرجعنا إلى مراكزنا ووقفنا كل في مكانه مستعدين للعمل، ولكن طال الانتظار حتى يئسنا من قدوم القطار، وما هممنا بالرحيل حتى رأينا دخانا يتصاعد من جهة "حلة عمار" فاستبشرنا خيرا، وانجلى ذلك الدخان عن قطار كبير قادم إلى جهتنا، وكان في مقدمة قاطرة تجارة وقاطرة أخرى احتياطية في مؤخره، ولما جاء ينساب كالأفعى ووصلت دواليب القاطرة الأولى إلى مكان اللغم أعطيت الإشارة لسالم فضغط على الجهاز، وأعقب ذلك صوت انفجار عظيم فتطايرت الدواليب والقطع الحديدية والخشبية

إلى الفضاء، وعلت المكان سحابة من الغبار، ولما انجلت ظهر تحتها قطار محطم..

ثم ما لبثنا أن رأينا الجنود الذين كانوا فيه يخرجون من العربات ويتحصنون وراءها، ثم أخذوا يرشقوننا بالرصاص، وكان عددهم يفوق عددنا كثيرا؛ فخفنا الهزيمة وسوء العاقبة، ولكن لم يطل الوقت كثيرا حتى صوب أحد المدفعين قذيفة إلى حيث الجنود ملتجئين؛ فحطم العربة وقتل عددا كبيرا منهم، والأحياء طرحوا سلاحهم مسلمين؛ فنزلنا إلى القطار وشاهدنا تأثير اللغم فيه، وأمعن العرب في جمع الغنيمة، ثم عدنا أدراجنا إلى الصحراء دون أن تشعر بنا الحامية التي كانت مرابطة في المدورة.

وبعد مسير يومين وصلنا إلى العقبة راجعين بالغنائم وإكليل الغار، معلنين أن الأتراك وقطارهم أصبحوا تحت رحمة العرب، والإنجليزيان اللذان رافقانا سافرا حالا إلى مصر، وقلد اللنبي كلا منهما وساما إقرارا بما قاما به من الصبر على المشاق في الصحراء.

رحلة غير ناجحة

وما أن جاء شهر تشرين الأول من سنة ١٩١٧ حتى قرر اللنبي وأركان حربه مهاجمة الأتراك في جبهة تمتد من غزة على البحر المتوسط إلى بئر السبع في داخلية البلاد، وكان اللنبي يتأرجح بين خطتين الأولى: مهاجمة الأتراك وجها لوجه وانتزاع البلاد منهم ميلا ميلا، والثانية: استخدام خدعة حربية يتمكن بها من الاستيلاء على فلسطين وسوريا دفعة واحدة، وعلى ما في الخطة الثانية من الحسنات فإنها شديدة الأخطار أيضًا إذ أن الفشل فيها يوقع في الجيش المهاجم خسائر جسيمة تفوق الخسائر التي تتأتى عن الفشل في الخطة الأولى، ولكن اللنبي لثقته بنفسه واعتماده على جيشه قرر اتخاذ الخطة الثانية، وبدأ يعمل على إيقاع العدو في خدعة حربية يضطره معها إلى الجلاء عن فلسطين وسوريا معا، ولكنه رأى أيضًا أنه لا يمكنه تحقيق خطته ما لم يهاجم الأتراك في جنوبي فلسطين ويطردهم من القدس وجوارها، وهذا ما عزم على القيام به في شهر تشرين الأول الذي أشرنا إليه في صدر المقال.

كان للنبي ما أراد من توطيد قدمه في جنوبي فلسطين، وبعد ذلك أخذ يعد العدة للقيام بهجوم عام، وقدح زناد الفكرة في استنباط الحيلة؛ فظهر له أن أفضل خدعة هي إيهام العدو أنه سيهاجمه في مكان معين، ثم يحول قوته إلى مكان آخر قد تركه العدو دون تحصين أو حامية كافية.. وهنا لا بد لنا من ذكر شيء عن جغرافية ذلك القسم من فلسطين لنفهم

كيف كان سير المعارك التي انتهت باندحار الأتراك وفوز الحلفاء فوزا مبينا.

إلى شرقي غزة وبئر السبع بحر يقال له "البحر الميت"، وإلى شمالي ذلك واد يجري فيه نهر الأردن المشهور فيقسم تلك البلاد إلى قسمين القسم الغربي، وهو فلسطين اليوم، والقسم الشرقي وهو شرقي الأردن، وعلى جانبي وادي الأردن تمتد سلسلتا جبال موازيتان للنهر، وحسب الأصول الحربية ظن الأتراك أن جيش اللنبي المهاجم سيتخذ الوادي ممرا له وليس الجبال العالية؛ فوقفوا له بالمرصاد هناك وعززوا قوتهم، ولكي يزيدهم اللنبي تمسكا باعتقادهم هذا جلب من مصر كل الخيام القديمة الممزقة ونصبها هناك في وادي الأردن، ثم جاء بإحرامات للخيل قديمة ووضعها في صفوف مرتبة على الصخور هناك، فظهرت كأنها خيول جيش كبير من الفرسان، وكانت الطائرات الألمانية تطير فوقها مستكشفة، ثم تعود إلى مقرها حاملة الأنباء أن الجيش الإنجليزي كله مرابط في وادي الأردن..

وسرت إشاعة – مصدرها اللنبي – أن الجيش الإنجليزي سيقوم بمعارك دامية في ذلك الوادي التاريخي الشهير، فما كان كل ذلك إلا ليزيد الأتراك تمسكا في اعتقادهم فحولوا كل قوتهم نحو وادي الأردن، وتربصوا ينتظرون العدو ليكيلوا له الكيل كيلين والصاع صاعين، وهنا نترك اللنبي لنعود إلى لورنس وجيشه العربي الذي عليه وضعنا محور بحثنا في هذه المقالات.

تركنا لورنس في العقبة يسترجع القوى ويضع الخطط للمستقبل، وعندما علم بعزم اللنبي على القيام بهجوم عام قرر الاشتراك معه لعله

يجذب نحوه قوة من العدو فيسهل النصر للحلفاء في الساحة الشرقية.

ولولا الخوف من أن يمل القارئ لكنا نسرد له بإسهاب الأخطار التي كان تحملها لورنس في أسفاره، ولكننا نروي له وقائعه مع العرب أنفسهم وجهوده في حفظهم جيشا واحدا؛ رغم ما كان فيه من القبائل والعشائر المختلفة الميول والنزاعات.

رأى لورنس بعد إعمال الفكر أن أفضل خطة يقوم بها، هي الزحف سرا بجيشه السريع القليل إلى أبواب درعا وأخذها فجأة، وبذلك يقطع خط المواصلات بين مقر الجيش التركي الأساسي في دمشق وبين الجيش المرابط في فلسطين لمقاومة اللنبي؛ إذ أن درعا واقعة على الخطوط الحديدية التي تصل بين القدس وحيفا ودمشق والمدينة المنورة، واحتلالها عسكريا يجعل الجيش التركي في فلسطين في خطر شديد.. وقرر فيصل أنه يحتاج للقيام بهذه الخطة إلى جيش لا يقل عن ١٢٠٠٠ محارب فيحتل به درعا ويفاجئ دمشق ويقطع خط الرجعة على الأتراك بعد أن يرسل الحلفاء أسطولهم إلى بيروت وجوارها لسد الطريق الساحلية في وجوههم.

كان لورنس يتلقى من السكان حول درعا رسائل عديدة يطلبون فيها أن يتقدم إليهم، وأنهم يتطوعون في جيشه لمحاربة الأتراك، ولكن قبل قبول تلك الدعوات كان عليه أن يتريث في الأمر لئلا يفشل فيخسر كل ما ربحه إلى الآن، فضلا عن أن الدخول إلى درعا على جيش من السكان المجاورين ثم التراجع عنها يعرض أولئك السكان إلى مجزرة فظيعة ويتركهم تحت رحمة الأتراك، ولهذا بالاشتراك مع فيصل قرر الانتظار ريثما يقوم اللنبي

بالخطوات الأولى في الهجوم فإذا نجح سارا في خطتهما.

ولكن في الوقت نفسه الذي قررا فيه الانتظار رأيا أن يعرقلا سير الأتراك – ولو قليلا – فيمنعانهم عن إرسال النجدات إلى جيشهم في فلسطين؛ لعلهما يسهلان بذلك على اللنبي الخطوات الأولى في الهجوم، وأفضل مكان لعرقلة سير الأتراك نسف الخط الحديدي حيث يمر فوق عدة جسور على نهر اليرموك، واختار لورنس اثنين من هذه الجسور التي يصعب على الأتراك إعادة بنائها؛ فأخبر اللنبي بهذه الخطة الصغيرة وطلب إليه رأيه؛ فأجابه أنها فكرة حسنة ويجب القيام بها في أحد الأيام الواقعة بين الخامس من تشرين الثاني والتاسع منه؛ إذ يكون اللنبي قد بدأ في مهاجمة العدو الذي يشعر إذ ذاك أنه منفصل عن مركزه العام في دمشق، ويقطع الأمل بالنجدات فتضعف قواه المعنوية كثيرا مدة أسبوعين على الأقل.

وكان على لورنس لكي يتم خطته هذه ويصل إلى اليرموك، أن يسافر مع جماعته من العقبة مارا بالأزرق مسافة ٤٢٠ ميل، وإذ ظن الأتراك أن لورنس وجيشه بعيدون عن الخط الحديدي؛ تركوه دون أن يحموه بقوة كافية فكان ذلك ملائما للجيش العربي كل الملائمة.

وكان في الجماعة التي اختارها لورنس شاب شجاع يدعى علي بن الحسين شريف حارث، وقد أبدى شجاعة فائقة في معاركه الأولى مع فيصل قرب المدينة، وإذ كان علي ضيف جمال باشا مدة في دمشق كان يعرف الكثير عن الأحوال في سوريا.. وإذا أضفنا كل هذا إلى شجاعته في المخاطر كان للورنس فيه أكبر معوان على الأعداء في رحلته هذه.

واستصحب لورنس معه المهندس الإنجليزي في العقبة، والذي كان يعتمد عليه في دس الألغام وإشعالها، وكانت خطة لورنس أن يسير بجماعة قليلة إلى الأزرق، ثم من هناك يسير بجماعة تبلغ الخمسين عدا إلى أم قيس تحت قيادة رفاع الشجاع، وهناك يبذل جهده في استمالة نفر من بني أبي طي زعل لمرافقته أيضًا، وهؤلاء يعين لهم الهجوم على الجسر وقتل حراسه بعد نسفه، وإذا كانت المحطات المجاورة لترسل إلى الحراس نجدة كان على بني طي أن يصلوهم نارا حامية من مدافعهم الرشاشة التي يطلقها الكابتن الإنجليزي "برايز" من الفرقة الهندية التي كانت في الساحة الغربية وأصبحت الآن تحت قيادة حيدار حسن شاه.

وبينما لورنس وجماعته على شوك السفر، قدم إليهم بغتة الأمير عبدالقادر الجزائري، وهو حفيد الجزائري الذي حارب الفرنسيين في الجزائر مدة ليست بقصيرة، وبعد أن استقر به المقام عرض على فيصل رجاله سكان القرى المجاورة لنهر اليرموك؛ فسر لورنس لهذا القادم الجديد وقرر العدول عن مهاجمة الجسور عن طريق الأزرق وحول أفكاره إلى مهاجمتها في وادي خالد، وعدل أيضًا عن دعوة رفاع ليلاقيه إلى الأزرق، وإذ هم في هذه الحال ورد إليهم نبأ برقي من الكولونيل برمون يقول لهم فيه أن عبد القادر هذا جاسوس في يد الأتراك فيجب الحذر منه؛ فقرر لورنس استخدامه ولكن بحذر فضمه إلى جماعته وساروا في طريقهم شمالا ثم شرقا..

(ولكي لا نطيل الكلام على القارئ نعرض عن وصف ما جرى لهم

في الطريـق وننتقـل بالكـلام إلى وصـف هجـومهم علـى الجسـور فـوق نهـر اليرموك)

وقبل أن تصل الجماعة إلى الأزرق ركب عبد القادر الجزائري ورجاله علـى خيـولهم الجميلـة، واسـتعدوا للمعركـة مـدعين أن العـدو أصـبح قريبـا وسـاروا في مؤخرة الجماعة على بعد بعض الأمتار، ولما وقعت عينا علي علـى الأزرق صـاح مـن شـدة الفـرح واسـتحث مطيتـه ثم نظـر إلى الأرض، ورأى الأعشاب الخضراء تغطيها فنزل عن ظهر ناقته وأخذ يرقص طربا لرؤية تلك الأعشاب النضرة، ولما رجع إلى العمل التفت إلى الوراء فلم ير عبد القادر ورجاله فأرسل الرسل لإرشاده إذا كان ضل عن الطريق؛ فرجع الرسـل دون أن يقفـوا لـه علـى أثـر فعلمـوا إذ ذاك أن خطتـه هـذه كانـت مدبرة، وأنه تركهم وذهب إلى الأتراك لينقل إليهم أخبار لورنس ويطلعهم على عدد رجاله؛ فلم تسر الجماعة بهذا الحادث، فاضطروا إلى تغيير الخطة وعدلوا عن مهاجمة أم قيس إذ لم يرسلوا إلى رفاع خبرا ليلاقيهم إلى ذلك المكـان، وعـدلوا أيضًـا عـن وادي خالـد إذ لم يعـد بالإمكـان الاتكـال علـى رجـال عبـد القـادر؛ فلـم يبـق أمـامهم إلا الجسـر الواقـع في تـل الشـهاب، ولكي يصلوا إليه كان عليهم أن يجتازوا المسافة بين درعا والرمث.

تابعت الجماعة سيرها إلى أن وصلت إلى قرب تل الشهاب، ووقفت قليلا، فاختار لورنس من الهنود المرافقين للحملة ستة من أشجع الفرسان ووضعهم على ستة من أقوى المطايا، وجعلهم تحت قيادة حسن شاه الذي اختار مدفعا واحدا، وهذا نقص في العدد الحربية جعل لورنس يتشاءم من

هذه الحملة، وكان في الحملة جماعة من بني صخرا أيضًا المشهورين في الحرب فوضعهم لورنس تحت قيادة فؤاد وعين لهم الهجوم بعد نسف الجسر، وأما جماعة بني سرحان فكان لورنس على شك في إخلاصهم نحو القضية العربية، ولهذا عين لهم حراسة الخيول عندما تتقدم الجماعة إلى الأمام للحرب والنسف.

ولما بلغت الجماعة القليلة مكانا يقرب من الجسر الذي كانت تنوي نسفه وقف قسم منها ومعهم المدفع وتقدم قسم آخر لوضع المتفجرات تحت الخطوط الحديدية.

وكان هذا العمل منوطا بلورنس الذي نزع نعله من رجليه وأخذ في الزحف تارة والمشي طورا حتى وصل إلى الخط الحديدي قرب الجسر تماما وباشر في وضع المتفجرات تحت القطع التي تربط الخط الواحد بالآخر، ونظر إلى الأمام فرأى الحارس على بعد ٦٠ متر واقفا بجانب صخر عال، وما هي إلا لحظة حتى سمع لورنس وجماعته صوت وقع بندقية إلى الأرض.

وكان سبب ذلك فرقة الهنود التي كانت تتخذ مراكزها للدفاع، فلما سمع الحارس الصوت نظر إلى فوق فرأى على التل جماعة من الجنود فصرخ عاليا حتى أيقظ الحامية وبدأ إطلاق الرصاص من الفريقين.. وكان الحمالون يعرفون أنه إذا أصيبت المتفجرات برصاصة انفجرت بين أيديهم فقتلتهم.

ولهذا عندما حميت نيران المعركة طرحوا المتفجرات إلى الوادي فذهبت سدى وتراجعوا يندبون سوء حظهم وفشلهم، وفي تراجعهم رأوا في الطريق جماعة من الفلاحين عائدة من درعا فسلبها السراحين ما كان معها

فاستنجدت الجماعة بالقرى المجاورة حتى كان وراء جماعة لورنس جيش لا يدرك الطرف آخره وهربوا قانعين من الغنيمة بالإياب.

وهكذا ساروا كل الليل حتى وصلوا في الصباح إلى مكان أمين، فأناخوا فيه ودقوا خيامهم للراحة، ولكن كان الغضب يملأ رؤوسهم بسبب ما أصابهم من الفشل، وكانت أصوات مدافع اللنبي أكبر مصدر قلق لهم، ثم ساروا كل ذلك النهار إلى أن وصلوا إلى أبي صوانة قرب غروب الشمس وكلهم يائس، فتشاجر أحمد وفؤاد، وأبى مصطفى الطاهي أن يطبخ لهم طعاما، فانهال عليه فرج وداود بالضرب إلى أن أجهش بالبكاء، وناموا كلهم والفشل مخيم فوق رؤوسهم.. أضف إلى ذلك ما لحقهم من التعب بعد سفر مئات الأميال في مدة قصيرة من الوقت بين غروب الشمس والغروب التالي دون أن يذوقوا طعاما أو نوما.

تدمير القطار

لا يخفى على القارئ أننا عندما تركنا الأزرق للقيام بأعمال النسف والتدمير حملنا معنا زادا يكفينا ثلاثة أيام فقط، وها نحن الآن قد نفد زادنا ولم ننجح في المهمة التي سافرنا لأجلها فأصبحنا تحت تأثير عاملين شديدين: الجوع والفشل. وبينما نحن في حيرة وارتباك إذا بأحدنا يقول "قد بقي معنا قليل من المتفجرات فلماذا نرجع بها؟ لنجرب ثانية علنا ننجح في نسف قطار ما". فهلل الباقون لكلامه وصفقوا وقالوا له "الحق ما قلت" وقام بنو صخر يطلبون مخاطر ليتحملوها، والسراحين يتوعدون الأتراك ويظهرون رغبتهم في الفتك بهم.

وأما أنا (لورنس) فأعرف أن نسف القطار لا يقوم بالكلام والوعيد والتهديد، بل يحتاج إلى معارف فنية في الخطط الحربية واستعمال الجهاز الذي يشعل المتفجر؛ فترددت بادئ ذي بدء لأنني بعد درس المسألة رأيت أن المدافعين الهنود الذين معي قوم أشداء إذا كانت بطونهم ملآنة، وأما تحت وطأة الجوع فهم لا يعادلون الأولاد بأسا في المعارك، ولو كانوا كالعرب يقضون الأيام العديدة على طعام قليل جدا لكانت الأخطار أقل مما هي، فضلا عن أن العربي إذا ضاقت به الحيل عمد إلى جمله فقتله وأكل لحمه، وأما الهندي فلا يأكل لحم الجمال مُطلقًا.

أوضحت لعلي كل هذه الأمور وأبنت له مواقع الخطر، ولكنه أصر

قائلا "انسف لنا القطار وأنا ورجالي نتكفل بالهجوم بدون مساعدة المدافع".. قر قرارنا على أن نكمن لأحد القطارات فننسفه، وإذا رأينا فيه من الزاد ما يلائمنا كان ذلك غاية ما نروم ونطلب إذا لم نجد فيه المطلوب عرقلنا سير الأتراك وساعدنا اللنبي ولو قليلا و"ليس من حصاة صغيرة إلا وتسند خابية كبيرة".

ولما تولت حجب الظلام وانبثق نور الفجر، قمنا جميعا، وكنا نبلغ الستين عدا؛ فسرنا إلى تل منيفير الذي كنا نقدر أن نرى منه الخط الحديدي ونجد فيه مرعى للخيول ومنافذ عديدة للهرب؛ فقضينا هناك كل ذلك النهار نسرح الطرف في ذلك السهل الواسع، وننظر إلى الأفق البعيد فنرى قمم جبل الدروز مكسوة بالغيوم وقرية أم الجمال وغيرها من القرى كأنها في خضرة ذلك السهل كبقع الحبر في صحيفة من القرطاس.

ولما دخل الليل خف عدد قليل منها للهبوط إلى الخط الحديدي ووضع اللغم تحته، وإذ وصلنا إلى الجسر وبدأنا العمل سمعنا فوقنا دمدمة، وإذا به صوت قطار مار فتركناه لشأنه وعدنا إلى العمل إلى أن تم الأمر على غاية ما نروم، ثم أخذنا نتراجع إلى الوراء غامرين شريط اللغم في التراب، وخوفا من أن نترك علامات أقدام على الأرض نزعنا نعالنا من أرجلنا ومشينا حفاة إلى أن بلغنا مكمنا أمينا، فبقيت فيه وحدي وأرسلت الآخرين إلى التل ليراقبوا سير القطار ويوافوني بالإشارات.

ووصلنا الجهاز الكهربائي بشريط اللغم وكان طول الشريط نحوا من ستين متر..

وبعد أن أتممت كل ذلك جلست في مكاني أنتظر قدوم القطار، وما هي إلا مدة قصيرة حتى رأيت أحد حراسي يعطي إشارة تدل على أن أحد حراس الأتراك يقترب مني في دورته التفتيشية؛ فهربت خفية إلى حيث يجلس رفاقي، وحملت معي الجهاز الكهربائي وأعطيته لأحد رجالي.

ولما أتم الحارس دورته ورجع إلى مكانه الأول رجعت أنا أيضًا إلى مكاني بدون الجهاز على أمل أن يأتيني به من كان يحمله.. وما كدت أجلس في مركزي حتى مر قطار سريع جدا قبل أن يتمكن حامل الجهاز من الوصول إلي فكانت تلك فرصة مضيعة، وبدأنا نتشاءم من هذه السفرة غير المثمرة.

ولكي أحول أنظار رجالي عن الفشل اقترحت عليهم إقامة حراس في أكثر من مكان واحد، وكان هذا الاقتراح مشجعا لهم مع أنهم كانوا بلا زاد، وكان المطر يتساقط بشدة ويعضنا البرد بنابه، وكان إذا توقف المطر هبت ريح باردة تخترق الثياب وتدخل إلى الجسم كأنها سيف ماض؛ فجلسنا على ذلك التل ونحن في هذه الحالة المملة لا طعام ولا عمل ولا مكان جاف نجلس عليه، وقلت في نفسي أن طقسا كهذا يؤخر سير اللنبي نحو القدس فنضطر بذلك إلى قضاء سنة أخرى في حالة لا يمكن أن يتحملها بشري.

وقرب الظهر صحا الطقس قليلًا، وانقشعت السحب التي كانت تواصلنا بالمطر الرذاذ تارة، وطورا بالمتهاطل منه، وإذا بحراسي يشيرون إلى قدوم قطار فتراكض القوم كل إلى مكانه وجلست أنا في مكاني المعين والجهاز بيدي وتطلعت إلى الوراء؛ فوجدت أن الجماعة مختفية جيدا وراء الصخور، وبقيت جالسًا في مكاني نحو ساعة من الزمن حسبتها دهرا، فسألت رجالي عن القطار فقالوا لي أنه يتقدم انتظر، فانتظرت مدة أخرى، ثم سمعت صوته يتقدم رويدًا رويدًا، وكان لطوله ولضعف قاطرته التي كانت تسير على الحطب يتقدم خطوة خطوة، ورأيت فيه عربات مكشوفة مملؤة جنودا.

ولما وصلت القاطرة إلى مكان اللغم ضغطت على الجهاز وانتظرت الانفجار فلم يحدث شيء؛ فأعدت العمل نفسه ثلاث مرات ثم أربعة، ولكن دون جدوى، فعلمت أن هناك تشويشا في الجهاز، فسار القطار آمنا ونجا بمن فيه.

وفي تلك الساعة رأيت نفسي السبب في الفشل، أمامي قطار ملآن بالجنود يسير على بعد ستين متر. وأنا لا أقدر أن أفعل شيئا، وكيف أقابل رفاقي الذين ينتظرونني على رأس التل وبنادقهم في أيديهم يرجون نسف القطار لسلبه ونهبه والاقتيات بما فيه من الطعام.

ولما اجتاز القطار الجسر رجعت إلى رأس التل كالأرنب الجبان أطلب ملجأ مع رفاقي الذين بعد أن عرفوا السبب انقسموا إلى قسمين: منهم من لامني وهم بقتلي وهم السراحين.

ومنهم من دافع عني وهم بنو صخر، وإذ سمع علي الجلبة والصياح تقدم وأصلح بين الفريقين مفتيا في الأمر بالتي هي أحسن، فنجاني من ورطة يصعب الخلاص منها.

وأخذت الجهاز ونزعت عنه غلافه، ثم أخذت في إصلاحه حتى أصبح يعطي نارا كهربائية عندما تتلامس آلاته الداخلية، فوعدت الجماعة خيرا، وإذ كان الليل قد جاء واشتد سقوط المطر انتحينا ناحية وقضينا الليل بين الأنين والتذمر إلى أن انجلى الظلام ولاح نور الصباح، فعمدنا إلى بعير قد أصابه الجرب فذبحناه وجلسنا لنأكل لحمه نيئا إذ لم يكن لدينا حطب ناشف نحرقه، وما كدنا نستقر في أماكننا للطعام حتى صرخ الحارس "ها القطار" فأسرعنا إلى مراكزنا وبيدي الجهاز، وما هي إلا هنيهة حتى قدم القطار وفيه قاطرتان الواحدة في مقدمة والأخرى في مؤخرة، ولما وصلت القاطرة الأولى إلى مكان اللغم ضغطت على الجهاز فتصاعد التراب والصخور في الجو وخيمت فوق القطار سحابة من الدخان ودوت الأودية لشدة صوت الانفجار، ولما انجلى الدخان رأينا قطارا مكسرا، ولكن لم يمض إلا الوقت القصير حتى رأينا العدو يستفيق من غيبوبته ويصب علينا نارا حامية؛ فقابلناه بالمثل، ووجدت نفسي بين نارين: نار العدو من أمامي، ونار الأصحاب من ورائي؛ فسقطت إلى الأرض لكي لا يصيبني الرصاص فظن رفاقي أنني قتلت فركضوا إلى ووجدوني سالما لم أصب بأذى..

وإذ رأينا العدو يفوقنا عددا وعدة انسحبنا من وجهه بانتظام إلى أن

وصلنا إلى مكان أمين فجلسنا وذبحنا جملا آخر أصيب بالجرب، ثم وزعت الدراهم على أهل الذين قتلوا في المعركة، ومنحت الذين أبدوا شجاعة جوائز متنوعة، ثم في اليوم التالي رجعنا إلى الأزرق رجوع المنتصر، ولما وصلنا إلى قصرنا القديم هناك رأينا أن أمير صلخد الدرزي كان قد سبقنا إليه فأخبرنا ما عمله الأمير عبد القادر الجزائري بعد أن تركنا في الطريق كما يعلم القارئ وإليك قصة ما فعل.

ذهب إلى القرى الدرزية رافعا العلم العربي، وكان رفقاؤه يهزجون ويطلقون النار فتعجب القوم من هذا العمل، حتى أن القائد التركي اعترض على سلوك عبد القادر هذا الأمر، وإذ حضر ذلك القائد ليبدي اشمئزازه من عمل كهذا رأى عبد القادر جالسا بكل عجب على ديوانه وحوله رجاله، وبدأ بخطاب فصيح جاء فيه أن الشريف العربي قد استولى على جبل الدروز بواسطته، وأنه بالنيابة عن الأمير فيصل يثبت كل مأمور في وظيفته؛ فاستاء الدروز لهذه السياسة الخرقاء ومن حقهم أن يستاؤوا، ولكن الأمير عبد القادر انهال عليهم بالسب والشتائم ثم خرج من الخيمة مسرعا إلى درعا حيث فعل كما فعل في صلخد، ولكن الأتراك لم يصدقوه كما أنهم لم يصدقوا ما أخبرهم به أننا سننسف القطار على جسر اليرموك، ولكن عندما سمعوا أننا حقيقة نسفنا القطار هناك اهتموا بأخبار عبد القادر؛ فألقوا عليه القبض وساقوه إلى الشام ليكون برفقة جمال باشا وتحت مراقبته.

قوة جديدة

تركنا في المقال الماضي لورنس وجماعته في الأزرق يستمعون إلى قصة الأمير عبد القادر الجزائري –كما رواها شيخ صلخد – وبعد ذلك عزم لورنس على الرجوع ثانية إلى العقبة للوقوف على الخطط التي وضعها اللنبي؛ فاستصحب جماعة من رفاقه وسار جنوبا إلى المقر الأساسي للجيش العربي في العقبة.

وقد قاسى في سفرته هذه مخاطر ليست بقليلة، ولكن ضيق المقام يضطرنا إلى إهمال ذكرها، ولهذا نبدأ القول بأن الذي ينظر إلى خارطة سورية وداخليتها وخارطة فلسطين والصحراء يرى أن الأزرق واقعة إلى الجنوب من جبل الدروز.

والعقبة واقعة في الجنوب قرب شبه جزيرة سيناء على الخليج المعروف بذلك الاسم، وما كانت حملة لورنس شمالا لنسف الجسر سوى انسلال خفي بين جيوش العدو، ولذلك كان عليه في رجوعه أن يمر في أماكن مجاورة للعدو معرضا نفسه بذلك لأخطار جمة، ولكن صاحب الحيلة ناج؛ فتمكن لورنس من الوصول إلى العقبة حيث أخبره أن اللنبي يطلبه إليه في مقره في جوار غزة؛ فأسرع لورنس ملبيا الطلب على متن طائرة أقلته من العقبة إلى السويس، ومنها إلى غزة؛ فوجد اللنبي يتلقى أخبار انتصاره في أنحاء فلسطين، حتى أن لورنس اكتفى بأن قال له أنه فشل في نسف جسر

اليرموك (وقد وصفنا للقارئ ذلك الفشل في مقالات سابقة).

غير أن اللنبي كان ثملا بخمر انتصاراته، فلم يعر فشل لورنس أقل اهتمام، وبينما كان الاثنان يتجاذبان أطراف الحديث وردت إلى اللنبي رسالة من أحد قواده "شتود" يخبره فيها أن القدس قد سقطت أمام الجيش الإنجليزي، فتهيأ اللنبي لدخول المدينة دخول المنتصر، وأحب أن يشاركه لورنس في حفلة الدخول فاستصحبه معه ودخلا معا على رأس كتيبة من الجيش، ولكن لم يتمكن من إظهار التواضع والاحترام أمام ذلك المكان المقدس الرهيب، ثم جلسا يبحثان فيما يجب عمله بعد ذلك.

وكانت خطة اللنبي في ذلك الوقت أن يريح جيشه إلى أن ينقضي النصف الأول من شباط، ثم يعود إلى الهجوم فيتقدم إلى أريحا، وأشار إلى لورنس بأن العدو يستخدم وادي البحر الميت لنقل المؤن والذخائر، فإذا تمكن هذا الأخير من عرقلة سير العدو في تلك الناحية كان ذلك أكبر مساعد للنبي، فأجاب لورنس أنه إذا بقي الأتراك متزعزعين في مراكزهم؛ فالجيش العربي يقدر أن يتصل بجيش اللنبي في الطرف الشمالي من البحر الميت، وإذا كان اللنبي يكفل لجيش فيصل نقل خمسين طن من المؤن يوميا، فإنه يتمكن إذ ذاك من نقل القيادة العربية العامة من العقبة إلى أريحا.

فوافقت هذه الخطة اللنبي وأركان حربه، واتفق القواد جميعهم على أن الجيش العربي سيسير شمالا نحو البحر الميت بأسرع ما يمكن؛ فيصله قبل نصف شباط، ويقطع إرسال المؤن إلى أريحا، ثم يواصل سيره شمالا فيصل

إلى وادي الأردن قل آخر شهر أذار.

وعاد لورنس إلى العقبة حاملا التعليمات والخطط الجديدة، ولما بلغها وجد أن الجيش العربي أخذ بعد عودة اللنبي ينظر إليه نظرة الاحترام، كما أن لورنس نفسه بدأ في إعداد حرس شخصي يحميه من يد مغتالة.

عندما تحركت ركاب الجيش أولًا من رابغ إلى الينبع، لم يهتم به الأتراك كثيرا ظنا منهم أنه موجة صغيرة في بحر الحرب الكبرى، وسوف تضمحل مع استعمال قليل من القوة في وجهها، وأما الآن فقد أخذ منهم القلق كل مأخذ حتى أنهم كانوا ينسبون إدارة الثورة العربية للإنجليز، كما كان الإنجليز ينسبون ما يقوم به الأتراك من الخطط الحربية الناجحة للألمان الذين كانوا في ذلك الوقت قد انتشروا في أنحاء تركيا كلها، ولهذا أخذ الأتراك يعدون بدفع مائة ليرة عثمانية لكل من يأتيهم بضابط إنجليزي ميتا أو حيا، ثم وضعوا على رأس لورنس بعد سقوط العقبة ثمنا باهظا جدا، وبعد نسف قطار جمال باشا ظهر اسم الشريف علي مع اسم لورنس في قائمتهم أيضًا، ووضعوا على رأس الواحد منهما عشرين ألف ليرة لكل من يمسكه حيا، وعشرة آلاف ليرة لمن يأتي به ميتا، ومع أن نوع الثمن لم يعرف أذهبا كان أم ورقا، ومع أنه لا يمكن التأكيد أن الأتراك يقومون بالوعد فالحالة كانت تقضي بالانتباه والحذر؛ فأكثر لورنس من الحرس الشخصي ليكون في حرز أمين يقيه شر عدو منتقم، وجمع حوله كل متشرد ثائر على الحكومة التركية، وتسنى له أن يلقى عددا كافيا من هذا النوع.

وحسب الخطة التي اتفق عليها لورنس واللنبي أخذ الجيش العربي

يزحف من العقبة شمالا على طريق غربية موازية للخط الحديدي، فاحتل الطفيلة أولا، وبعد ذلك داهمه الشتاء فوقف عن الحركة، وهنا وقعت حوادث كان يجب علينا وصفها لولا ضيق المقام.

وبينما لورنس ورفاقه يقاسون مرارة العيش في مكان بارد، قضت الأحوال على لورنس أن يتوجه إلى فلسطين للبحث مع اللنبي في أمر قضية حربية، ولما مثل بين يديه أطلعه القائد العام على نبأ جاء فيه أن الوزارة الحربية أصبحت تعتمد عليه (اللنبي) كثيرا الآن لأن حرب الخنادق في الساحة الغربية قد جعلت المعارك خطرة جدا، حتى أصبح الجندي لا يقوى على رفع رأسه فوق حافة خندقه، وهذه الحالة منعت جيوش الجانبين من التقدم شبرا واحدا، ولهذا لم يعد للحلفاء من أمل سوى الانتصار على تركيا في الساحة الشرقية وإجبارها على التسليم، ثم نقل قواتهم إلى الساحات الأخرى وإشارات وزارة الحربية على اللنبي بالسعي للاستيلاء على دمشق على الأقل، وحلب إذا كان ممكنا، وهذه البرقية من الوزارة الحربية البريطانية كانت السبب في دعوة اللنبي للورنس والبحث معه فيما إذا كان الجيش العربي الذي يؤلف الآن الجناح الأيمن من جيش اللنبي يقدر أن يتخذ على نفسه مسؤولية الزحف ضد الأتراك في شرقي الأردن؛ فيحول اللنبي قواته إلى فلسطين ويدحر الأتراك فيها.

فأجاب لورنس أنه قبل اتخاذ هذه الخطة العامة يجب النظر في أمور لا بد من درسها هي:

أولا – معان – فإذا كان اللنبي يقدر على إمداد الجيش العربي بفرقة

من الجمالة لنقل المؤن لكي يصبح قادرا على الابتعاد عن مقره مسافة ثمانين ميلا على الأقل؛ فإنه يقدر بذلك أن يعسكر شمالي معان ثم يقطع الخط الحديدي فتضطر الحامية هناك إلى التسليم على أهون سبيل، خصوصا أن الجيش التركي لا يقدر على الوقوف في وجه الجيش العربي إذا التحم الجيشان في معركة لمعت فيها السيوف وشرعت الخناجر.

ثانيا: أن الجيش العربي يحتاج أيضًا إلى بعض مدافع رشاشة وسبعمائة بعير لحمل المؤن والذخائر.

ثالثا: حماية الجيش العربي من جهة عمان بينما هو مشغول في حصار معان

فقبل اللنبي بهذه الشروط، وأسرع فأمر بإرسال فرقتين من الجمالة تحت إدارة ضباط إنجليز إلى الجيش العربي، وكانت تلك هبة عظيمة يتمكن لورنس بها من إرسال أربعة آلاف مقاتل مسافة ثمانين ميل عن المقر الأساسي.. كما أن اللنبي وعد بإرسال المدافع اللازمة وحماية الجيش العربي من جهة عمان إذ انه كان عليه – لحماية جناحه – أن يحتل السلط ويحتفظ بها بتركه فيها كتيبة من الهنود.

وفي الغد اجتمع المجلس الحربي، وكان لورنس حاضرا، فصادق على كل ما جرى فيه البحث في النهار السابق، ثم سار لورنس جنوبا إلى العقبة ليطلع فيصل على الخطة الجديدة مبينا له ما جاد به اللنبي على الجيش العربي؛ فسر فيصل كل السرور خصوصا عندما أخبره عن انضمام فرقتي الجمالة إلى الجيش العربي.

وأنه – أي اللنبي – وضع تحت تصرف لورنس ثلاثمائة ألف ليرة إنجليزية كنفقات ضرورية للجيش، وبفضل وسائط النقل الجديدة انفتح أمام الجيش العربي مجال ليظهر نفسه أنه كفء للحرب النظامية بعد أن قضى الضباط الإنجليز والعرب مدة ليست بقصيرة في تدريبه.

وبعد مقابلته لفيصل أسرع لورنس إلى مصر لتحقيق ما وعده به اللنبي، فكان له ما شاء من ضباط وعتاد حربي.

نشأت الثورة العربية كطفل صغير مطالبه قليلة، ولكن كانت المسؤولية عليه قليلة أيضًا.

وأما الآن فقد أصبحت شابة تحتاج إلى مساعدات كثيرة، كما أنه أصبح عليها مسؤوليات كثيرة أيضًا إذ أن اللنبي أصبح يعتمد عليها، فإذا فشلت كان ذلك سببا لخسارة الساحة الشرقية وإهدار دماء غزيرة من جنود العرب والحلفاء، وبكلمة كانت الثورة العربية في بادئ الأمر صغيرة لا تتعدى حد المناوشات، وكان القواد العرب يقومون بها حبا بمجابهة الأخطار والمغامرات، وأما الآن فقد أصبحت حربا منظمة يتوقف على الفشل فيها خسارة جسيمة، وعلى النجاح ربح طائل.

وكانت أول خطوة خطوها إعداد هجوم على الخط الحديدي شمالي معان، ثم التوجه جنوبا إلى المدينة لحمل حاميتها على التسليم، وهذا ما سنصفه في المقال القادم.

معركة غير ناجحة

وفي أحد الأيام عقد أركان الجيش العربي مجلسا ضم جميع الضباط، واتفقوا بالإجماع على مهاجمة العدو من ثلاث جهات، أو بالأحرى في ثلاث ساحات حربية في آن واحد؛ فكان الجيش العربي النظامي يؤلف قلب الجيش تحت قيادة جعفر، ويقوم بمهاجمة "معان"، والاستيلاء عليها، ثم يؤلف جويس الضابط الإنجليزي رتلا من السيارات الحربية يسير بها إلى الشرق لمهاجمة الخطوط الحديدية وتدميرها، بحيث يتعذر على العدو إصلاحها، وتؤلف هذه الفرقة الجناح الأيمن.. ثم يتألف الجناح الأيسر من لورنس وجماعة من الجيش تحت قيادة مرزوق فيسيرون غربا ثم شمالا إلى أن يتصلوا بالجيش الإنجليزي في جوار أريحا، وبذلك يحدقون بالعدو من كل جانب، وهنا نصف للقارئ ما حل بكل من هذه الفرق الثلاث التي كانت تؤلف الجيش العربي الزاحف لمحاربة الأتراك.

كان اليوم الثالث من نيسان سنة ١٩١٨ حينما نهض لورنس وجماعته فتركوا (أبا اللسان)، وكانت حياة الربيع تجري في الأجساد فتبعث فيها النشاط بعد خمول الشتاء، وكانت الجماعة مؤلفة من ألفي جمل من جمال السراحين تحمل المؤن والذخائر، واضطر الفرسان أولا إلى السير ببطء لكي يسايروا القافلة ويبقوا على اتصال بها.. ولما كان على هذا الجيش الزاحف أن يجتاز الخط الحديدي ثانية أرسل كشافة في النهار للتجسس، ثم المرور بالجيش في الليل دون أن يشعر به العدو، وكان لورنس

بين أفراد الكشافة؛ فوصف المهمة التي انتدب لأجلها كما يأتي:

قرب مغيب الشمس ظهرت لنا الخطوط الحديدية تتعرج بين العوسج النابت حديثا، وكانت السكينة مخيمة في تلك الأرجاء؛ فتقدمت غير هيَّاب ولا وجل، قاصدا اجتياز الخط الحديدي، ثم انتظار على الجانب الآخر إلى أن يعبر باقي الجيش، ولما لمس خف بعيري الخط الحديدي عرتني قشعريرة سببها ذكرى ما كنا نقاسيه في نسف خطوط كهذه.. وما بعدت بضع خطوات حتى رأيت أمامي حارسا تركيا كأنه قد استفاق من سبات عميق ففرك عينيه ورأى في يدي مسدسا مصوبا إليه، فكان يلتفت إلي تارة كأنه يتوسل ألا أوقع به شرا وطورا يلتفت إلى بندقيته المسنودة إلى صخر واطئ على بعد خطوات منه، ولم يقدر على الوصول إليها؛ فتقدمت إليه وقلت له "الرب رحيم" وكأنه على جهله اللغة العربية قد فهم معنى الجملة، فاستبدل بتوسله فرحا ظهر في لمعان عينيه، ولم ينبس ببنت شفة فاستحثثت مطيتي، وابتعدت عنه، وكنت أنتظر من وقت إلى آخر أن أرى الشاب التركي يسرع إلى بندقيته بعد أن أتجاوز مرمى رصاص المسدس، ويطلق علي رصاصة من بندقية فيلقيني إلى الأرض صريعا، ولكنه كان شهما فعفا عن رجل سبق أن كان قادرا أن يقتله ولكنه لم يفعل.

ولما اجتازت الكشافة الخط الحديدي، وبعدت عنه قليلا أوقدنا نارا يسترشد بها إلينا باقي الجيش، وانتظرنا هناك إلى أن عبرت الجمال سالمة بما عليها ومن معها، ثم استأنفنا المسير إلى وادي الجنز، حيث ألقينا عصا الترحال واصطاد بعضنا عددا من طير الحباري، فأولمنا وليمة عز مثيلها في

تلك الفيافي، كما أن الجمال نالت نصيبها من الوليمة فمتعت نفسها بالأعشاب الطرية النابتة في كل مكان، معلنة قدوم فصل الربيع.

وبعد ذلك تقدمنا إلى عطارة حيث كان ثلاثة من حلفائنا ينتظروننا على أحر من الجمر، وهم: مفلح وفهد وأدهوب، وكانت خطتنا كما رسمها لنا اللنبي أن نجتاز الخط الحديدي ثانية إلى تمهد حيث تستقي بني صخر، ثم نسير إلى مادبا ونعتصم بها جاعلينها مقرنا الأساسي إلى أن يمهد لنا اللنبي الطريق بين أريحا والسلط؛ وبذلك نتمكن من الاتصال بالجيش الإنجليزي دون أن نطلق من بنادقنا رصاصة واحدة، ولكن لا نتمكن من المسير حسب الخطة قبل أن تردنا الأخبار أن الجيش الإنجليزي قد احتل السلط وأمن على نفسه فيها؛ فبقينا في مكاننا ننتظر الأخبار بشوق زائد..

وما هي إلا مدة قصيرة حتى وردت الأنباء أن السلط أصبحت في يد الإنجليز، وبعد نصف ساعة كنا نسير نحو تمهد حسب الخطة، ولكن وردت أنباء أخرى في ذلك النهار تقول أن الجيش الإنجليزي أخذ يتراجع عن السلط في وجه الأتراك الذين يطاردونه في وادي الأردن.. ثم جاء رسول آخر يحمل إلينا تفاصيل الموقعة، وهي أن الإنجليز بعد مهاجمة السلط مدة يومين كاملين لم يتمكنوا من نيل شيء سوى تدمير بعض الخطوط الحديدية إلى الجنوب من معان، فقلقت أفكاري (لورنس) لهذه الأخبار، وأرسلت أدهوب مزودا بكتاب إلى "شتود" و"شيا" وطلبنا إليه الإسراع بالجواب فسار على ظهر جواده ينهب الأرض نهبا.. وفي آخر ذلك الليل سمعنا وقع

سنابك حصانه فأسرعنا إليه ولسان حالنا يقول "وعند جهينة الخبر اليقين" فأخبرنا أن أحمد جمال باشا مستقر الآن في السلط يشنق من العرب من والى الإنجليز وساعدهم، ولا يزال الأتراك يتتبعون الإنجليز في وادي الأردن، والشائع أنهم سيسترجعون القدس أيضًا، فصدقت القسم الأول من الأخبار، ولم أصدق الخبر الأخير لعلمي أنه أقرب إلى المستحيل منه إلى الحقيقة. وربما كان تراجع الإنجليز حكمة من اللنبي، ولكن على كل حال لم يعد لنا عند العرب تلك الثقة التي كانوا يضعونها فينا، فأصبحوا يخشون على موقفنا ثم على موقفهم أيضًا.

وعزمت بعد سماع تلك الأخبار المقلقة على أن آمر الهنود المرابطين في الأزرق بالرجوع إلى فيصل، ثم اللحاق بهم، ولما سرنا في الطريق ووصلنا إلى وادي الجنز لقينا الهنود مرابطين هناك؛ فأمرتهم بالرجوع ورجعت أنا أيضًا أتقدمهم مسافة بعيدة لأنني لم أقدر على السير ببطء في حالات كهذه. وما توقفنا حتى وصلنا إلى قرية أردو، ولما اعتلينا تلالها رأينا إلى شمالنا نور نيران مشتعلة؛ فظننا أنها صادرة من قرية جردون، فأصخنا أسماعنا إلى مكان النار فسمعنا دويا عميقا، ثم رأينا النيران تعلو، ثم انقسمت إلى قسمين؛ فأكدنا إذ ذاك أن جيشنا النظامي يحرق المحطة هناك، فأسرعنا إلى مستور نستطلعه الخبر فوجدنا مخيمه خاليا من الأحياء سوى ابن آوي كان يتتبع الروائح المنبعثة من ذلك المكان، فقررت أن أتقدم بسرعة إلى فيصل فعنده أجد الخبر اليقين.. وفي طريقي شاهدت أرتالا من الجراد تغشى الفضاء، فقلت في نفسي هذا صيف سابع أقضيه

في الشرق، وكنا كلما تقدمنا إلى الأمام نسمع دوي الرصاص يعلو من جهة سمنة؛ فتأكدنا أن جيشنا قد احتلها فتوجهنا إليها، وفي الطريق لاقينا جملا على ظهره هودج، ولما اقتربنا منه قال قائده: "هذا مولود باشا"، فقلت: "وهل أصيب مولود باشا بأذى؟" وكان مولود أفضل الضباط في الجيش وأخلصهم للقضية التي نحارب لأجلها، ثم سمعت صوتا ضعيفا يخرج من الهودج: "نعم يا لورنس بك قد أصبت بأذى، ولكن أشكر الله فإننا قد استولينا على سمنة"؛ فأجبته أنني متجه إليها، ولما دخلناها وجدنا الأتراك لا يزالون يحاربون وهم بين عاملين: عامل الأمل بالنصر، وعامل الفشل بالانكسار..

وكان نوري هادئا، وزيد قلقا جدا؛ فسألتهما عن جعفر، فأجابا أنهما ينتظران منه أن يهاجم جردون؛ فقلت لهما أنني شاهدت النيران تعلو من تلك الناحية، ولا شك في أنه قد نجح في هجومه، وما هي إلا طرفة عين حتى وردت إلينا رسله قائلة أنه استولى على غنائم وأسرى عديدين، وأن الخط من الجهة الشمالية قد تدمر تماما..

ثم أخبرني نوري أنه في ذلك الصباح نزل إلى غدير الحج، ودمر الخطوط الحديدية هناك أيضًا.

وبعد الظهر هدأت المعركة، واستولى التعب على المتحاربين، وسمعنا أن فيصلا قد خيم في مكان يدعى وحيدة؛ فسرنا إليه ولما وصلنا وأنخنا الجمال تقدم إلي ورحب بي، وبعد تبادل الأخبار وجدت أنه يعرف أكثر مني عن تراجع اللنبي في الشمال.

وكنا نتجول في ساحة الحرب من مكان إلى آخر، ونشاهد النجاح يبتسم في وجهنا، إلى أن عثرنا على نوري واقفا في مكان عالٍ، وعلى وجهة أمارات الخيبة والخوف؛ فسألناه عن السبب فقال: لقد نفذت المؤن الحربية من جعبتنا فأرسلنا نستعين ببيساني قائد المدفعية، فقال أنه الآن يطلق القذائف الأخيرة التي معه، وزاد على ذلك أنه نصح لنوري أن لا يهاجم العدو الآن إلى أن تتوفر لديه المؤن.

وكانت النتيجة أن رأينا رجالنا ينسحبون هاربين من المحطة بعد أن احتلوها وأراقوا دماءهم في سبيل الاستيلاء عليها، وكان الجرحى ينظرون إلينا شذرا لتركنا إياهم أسرى بين أيدي الأعداء.

وفي صباح اليوم الثامن عشر من شهر نيسان قرر جعفر الانسحاب بجيشه العربي إلى سمنة؛ تجنبا للوقوع في خسائر فادحة بسبب نفاد الرصاص، وبما أنه صديق حميم لقائد الحامية التركي أرسل إليه كتابا يدعوه فيه إلى الاستسلام؛ فأجاب القائد التركي أنه يفضل التسليم، لولا أن جمال باشا أرسل إليه أوامر مشددة بوجوب المدافعة إلى أن ينفد كل ما معهم من القذائف؛ فأشار جعفر أن يطلق الأتراك قذائفهم في الهواء، ثم يسلمون فيكونون بذلك قد أطاعوا أوامر جمال باشا، ولا يعود عليهم بلوم، ولكن بقي الأتراك يحاولون إلى أن تمكن جمال باشا من اختراق الصفوف كلها وإرسال النجدات والمؤن إلى الحامية على ظهر الجمال والبغال بعد أن ثبت قدمه في عمان واسترجع قرية جردون، ولكن بقي الخط الحديدي مدمرا مدة أسابيع عديدة بعد ذلك.

الجيش يستعد للهجوم

ذكرنا في المقال الماضي أن الجيش العربي زحف من العقبة بثلاث فرق، وقد وصفنا ما جرى للفرقتين الأولى التي كان يقودها لورنس، والأخرى التي تولت الهجوم على معان، وكيف أن هاتين الفرقتين قد انتهى بهما الأمر إلى العسكرة حول معان ومحاصرتها، وفي هذا المقال نصف ما جرى للفرقة الثالثة التي كانت تحت قيادة جويس الإنجليزي، والتي أخذت على عاتقها مهاجمة محطة المدورة وتدمير الخطوط الحديدية بين معان والمدينة، ولا نجد وصفا يطابق الواقع غير الذي ذكره لورنس نفسه:

بعد أن استقرت الفرقتان على التلال حول معان، ركبت السيارة وذهبت إلى تفقد الضابط "دوني" الذي أخذ على عاتقه تدمير الخطوط الحديدية، وقد قلقت لأنني أعرف أنه يجهل العربية، كما أن الضباط الإنجليز الآخرين الذين معه لا يحسنونها، ولما وصلت إلى معسكره رأيت السيارات واقفة بانتظام مستعدة للسير، ووجدت كل فرقة في مكانها المعين لها والضباط جميعهم على أتم استعداد؛ ففرحت لهذا المشهد، وكاد يسبقني لساني للقول: "لا ينقصكم إلا عدو تهاجمونه".

وفي فجر اليوم التالي زحفت السيارات بهدوء نحو الخنادق التركية، وما إن اقتربنا منها حتى رأينا جماعة من الجنود الأتراك قد حملوا الأعلام البيضاء وخرجوا إلى ملاقاتنا صاغرين، فاغتنمنا الفرصة وأسرعنا إلى المحطة

ووضعنا تحت أحد الجسور القريبة كمية كبيرة من الديناميت ونسفناه، حتى لم يبق حجر على حجر، فكان ذلك الجسر الأول، ثم تقدمنا إلى الجسر الثاني، وهكذا إلى أن نسفنا عدة جسور.

وأخذ المهاجمون يقتربون من المحطة رويدا رويدا من كل جهة حتى أطبقوا عليها وهجموا كالذئاب المفترسة للسلب والنهب، ووقفت الحامية التركية تنظر إليهم دون أن تحرك ساكنا.

وبعد أن هدأت المعركة وخمدت الأصوات العالية، وكان التعب قد أخذ منا كل مأخذ، دققنا الخيام في الفلاة لننام، ووضعنا حولنا الحراس الذين كانوا يفاخرون بنا؛ فوقفوا قربنا بالسلاح الكامل كما يقف الحراس على باب قصر بكنغهام في لندن (وهو قصر الملك البريطاني) ثم أخذوا يتمشون ذهابا وإيابا محدثين أصواتا مقلقة؛ فتقدمت إليهم وعلمتهم كيف يجلس الحراس في الصحراء هادئين لكي يتمكن الباقون من النوم براحة.

وبعد أن كان لنا ما شئنا من الراحة والفوز، قررنا أن نهاجم محطة المدورة بعد ثلاثة أيام، وهذه هي المحطة التي جئنا إليها مهاجمين قبلا، ولكنا رجعنا عنها بخفي حنين نتعثر بأذيال الفشل والخيبة كما عرف القراء في إحدى المقالات السابقة.

وفي صباح اليوم الثالث المعين ركبنا السيارات عوضا عن النياق، وسرنا إلى أن وصلنا تجاه المحطة آملين أن نرى حاميتها قد تولاها الذعر بعد سماعها أخبارنا عن نسف الجسور حولها، وإذ اقتربنا منها رأينا أمامها قطارا واقفا.

ولم نعلم ما إذا كان يحمل مؤنا وذخائر أو أنه ينقل منها الأمتعة استعدادا للهرب، وما كدنا نقترب بضع خطوات حتى رأينا الحامية تقذف علينا القنابل من أربعة مدافع رشاشة؛ فتراجعنا إلى مكان كنا فيه على مأمن من الرصاص.

وهناك قررنا ترك المحطة والشروع في تدمير الخطوط الحديدية بطريقة لا يقدر معها فخري باشا القائد التركي على إصلاحها.. وفي أيام قليلة كانت المسافة بين معان والمدورة – أي ثمانين ميلا وسبع محطات – كلها في أيدينا نتصرف بها كيفما نشاء، وكان ذلك خاتمة حصار "المدينة" التي انقطعت عنها النجدات الآن.

وفي هذه الأثناء قدم إلينا من العراق ضابط اسمه "يونغ" ليساعدنا في تنظيم جيشنا، وكان يحسن العربية جيدا نشيط الهمة ذا خبرة واسعة في الفنون الحربية، ولكي يألف الموقف تدريجيا كلفته بأن يجمع جيوش زيد وناصر ومرزوق إلى وحدة تعمل معا في المحافظة على ما دمرناه من الخطوط الحديدية والمدافعة عن المحطات المحتلة، ثم ذهبت إلى العقبة، ومنها إلى السويس لكي أتباحث مع اللنبي بالخطط التي كان قد وضعها للهجوم القادم.

وقبل أن أصل إلى مخيم اللنبي لقيت الجنرال بولز فقال لي مبتسما: أن الإنجليز الآن في السلط؛ فدهشت لهذا الخبر غير المنتظر، ولكي يزيل دهشتي أخذ في أيضًاح الحالة قائلا: أن رؤساء قبيلة بني صخر قد حضروا إلى أريحا وتطوعوا لخدمة الجيش الإنجليزي وتقديم رجالهم البالغين عشرين

ألفا في جوار تهمد؛ فسألته: من هو رئيس بني صخر؟ فقال بلهجة الانتصار: هو فهد، وكأنه شعر بأنه اكتشف شيئا في منطقتي لا أقدر على اكتشافه، وأنا أعرف حق المعرفة أن فهدا لا يقدر أن يجمع أكثر من أربعمائة رجل، فضلا عن تهمد في تلك الساعة كانت خالية من بني صخر تماما لأنهم قد ارتحلوا جنوبا لمساعدة الضابط الجديد "يونغ"، فما كان هذا الأيضًاح إلا ليزيدني حيرة وارتباكا؛ فأسرعت إلى المقر الرئيسي، واستطلعت فوجدتها كما رواها بولز، وذلك أن الفرسان الإنجليز ساروا إلى تلال موآب معتمدين على مواعيد شيوخ زبن العرقوبية، وهؤلاء الشيوخ كانوا قبلا قد انحدروا إلى القدس ليخدعوا اللنبي ويدفعوه إلى وصلهم ونفحهم بالهدايا الثمينة.

ولما وصل قائد الفرسان بفرقته إلى المكان المعين لم يجد أحدا من المساعدين، ورأى نفسه أمام نيران الأتراك الذين تقدموا إلى محاربته، ولو لم يسرع بالتقهقر لكان وقع مع جيشه أسيرا في يد الأتراك، وأفقدنا قوة فرسانه التي لا يستهان بها.

دخلت على اللنبي فوجدته كئيبا مفكرا؛ فسألته عن السبب فقال: أن الألمان يقومون بهجوم عنيف في الساحة الغربية، وذلك يمنع عنه المساعدة التي كان الحلفاء قد وعدوه بها، وعليه أن يحافظ على القدس دون أن يفقد جنديا واحدا من جيشه لصعوبة الاستعاضة عنه بجندي آخر.

غير أن الوزارة الحربية وعدته بأنها ترسل إليه فليقا من الهنود المرابطين في العراق، وبذلك يتمكن من إعادة تنظيم جيشه استعدادا للهجوم في أواخر صيف سنة ١٩١٨ وعندما كنا نتناول الشاي ذكر اللنبي فرقة الجمالة في سيناء، وأنه مزمع على حلها وتوزيعها على الفرق الموجودة؛ فاستغنمت الفرصة وسعيت جهدي لديه ولدى مدير النقليات في الجيش للحصول على عدد من الجمال أضمه إلى الجيش العربي فنجحت، وكان لي من تلك الفرقة المنحلة ألفا جمل، فحملت هذه الأنباء ورجعت بها إلى فيصل الذي كان معسكرا في أبي اللسان.

وبعد أن دخلت خيمته واستقر بي المقام لم أرد أن أفاجئه بهذا النبأ السار، فأخذنا نتحدث عن كل موضوع تحت الشمس من التاريخ القديم إلى الحديث إلى أمطار الربيع والجياد الصافنات، وأخيرا قلت له مع قليل من الاهتمام أن اللنبي قد نفحنا بهبة ملكية، وهي أنه أعطانا ألفي جمل، فقام وقبلني بين عيني ثم صفق بكفيه؛ فظهر البواب هجرس على الباب فقال له فيصل: "اذهب الآن وادعهم إلي" فأجابه البواب: "أدعو من؟" فقال له فيصل "فهدا، وعبد الله الفقير، وزعلا وو..." فقال البواب: "ألا أدعو لك مرزوقا؟" فأجابه فيصل شاتما إياه، واختفى البواب عن الأبصار، وهممت بالرحيل فمنعني فيصل، وقال: "يجب أن تبقى معنا دائما، وليس فقط إلى أن نصل إلى دمشق".

وما هو إلا وقت قصير حتى سمعنا وقع الأقدام خارج الخيمة، ثم أعقبه هدوء إذ كان القادمون يرتبون ثيابهم وشعورهم قبل دخولهم احتراما

لقائدهم فيصل، ثم دخلوا الواحد بعد الآخر، وكان كل واحد يقول "إن شاء الله خيرا؟" ثم يجلس على البساط، وكان فيصل يقول لكل واحد "الحمد لله"، ولما دخل الجميع قال لهم فيصل "إن الله قد أرسل إلينا وسائط النصر – ألفي جمل للركوب وسنسير إلى حربنا وإلى حريتنا دون عائق ما".

فلما سمعوا هذا النبأ التفتوا إلي ليروا ما إذا كانت لي يد في الحصول على هذه الهبة، فقلت لهم "هي من خير اللنبي" فصرخوا "أطال الله حياته وحياتك"، وعندها وقفت وودعت الحضور وخرجت إلى الضابط جويس لأخبره بكل ما جرى.

قبل الهجوم العام

أطلعت جويس على خبر الألفي جمل، فلم يكن أقل فرحا من فيصل بذلك، وهكذا أخذنا نضع لها الخطط قبل وصولها ونهيئ لها أماكن للمرعى وما شاكل ذلك أثناء الصيف المقبل، وفي الوقت نفسه كان علينا أن نحافظ على ما احتللناه حول معان من المحطات والقرى، لكي نزحف إلى الشمال عندما تأتينا الأوامر من اللنبي.

أخذت جبهة الثورة في الاتساع؛ فكان يقبع في خيمته معلما مرشدا وناشرا دعوته بين شيوخ القبائل الذين كانوا يأتون إليه، وكانت الجيوش في الوقت نفسه تبلى البلاء الحسن في ساحة القتال، وكان الأمير زيد معسكرا بنصف الجيش في الوحيدة يملؤه النشاط والهمة، وكأنه قد بعث تلك الروح في الضباط والجنود حوله حتى أصبح جيشه على أتم الاستعداد لمقابلة العدو، وهكذا كان الأخوان: فيصل، وزيد الأول برصانته وهدوئه وكبح جماح كل حركة تدل على طيش أو رعونة، والثاني بنشاطه وهمته يبعثان الحياة في كل من استنام للخمول والكسل.

بقينا مدة أسابيع نحمل على العدو الحملة تلو الحملة، فكان زيد وجعفر يشغلانه حول معان، وزحف الشريف ناصر برفقة بيك وهورني إلى الحسا في الشمال، واحتلوا مسافة ثمانية أميال من الخطوط الحديدية، وذلك أحبط مساعي الأتراك للهجوم ثانية على فيصل في أبي اللسان.

وفي هذه الساعة رأيتني قادرا على ترك الساحة الحربية والذهاب إلى اللنبي للوقوف على خططه الجديدة، ولما وصلت إلى مقر القيادة العام آنست نشاطا واهتماما وأملا بالفوز أكثر من الماضي.

وكان الجيش الموعود به اللنبي يرد من العراق والهند في الوقت المعين فيستقبله الضباط ويقسمونه إلى فرق متعددة ثم يتولون تعليمها وتدريبها..

وفي الخامس عشر من حزيران عقد أركان حرب اللنبي مؤتمرا حربيا قرروا فيه القيام بهجوم عام في شهر أيلول المقبل لتحقيق ما فرضه سمطس على اللنبي، وهو احتلال دمشق وحلب إذا مكنته الأحوال من ذلك، وكان نصيب العرب من هذا الهجوم أن يحتلوا درعا والجهات الشرقية، كما كان قد تعين لهم سابقا خصوصا بعد أن أصبحوا أقوى من قبل بفضل الألفي جمل للركوب.

وكان اللنبي أثناء الصيف يتنقل من مكان إلى آخر متفقدا الجيش الغازي؛ ليكون على يقين من أن كل الفرق مستعدة للعمل معا، وخصوصا الفرق الجديدة التي قدمت مؤخرا من العراق والهند.. وكان حيثما ذهب يرى الاستعداد قائما على قدم وساق حتى أصبح إيمانه بالنصر قريبا قويا، وقد فرض على جيشه ثلاثين ألف أسير من الأعداء، غير أن برتولماس أحد أركان حربه كان يرى الهجوم في أيلول سابقا لأوانه؛ لاعتقاده أن الجيش لا يكون تام الاستعداد في ذلك الوقت، ولكن رأى أنه يمكن الزحف أولا على خط مواز للشاطئ لاحتلال الرملة وجعلها مقرا للمؤن، ولكن هذه الحركة تنبه الأتراك لتحصين الشواطئ.. الأمر الذي كان يخافه اللنبي كما

سيأتي في القطعة التالية، ولكن الأتراك حسب تصرفهم كانوا يجهلون ما يدور في رأس القائد الإنجليزي من الخطط.

كانت خطة اللنبي العامة أن يجمع قوى جيشه من خيالة ومشاة في بساتين الليمون والزيتون في الرملة، وفي الوقت عينه يجمع في وادي الأردن كل الخيام القديمة المجلوبة من مصر وكل الجمال الجربة والمدافع القديمة التي اغتنمها من الأعداء، وذلك لكي يوهم الأتراك أنه سيهاجمهم في وادي الأردن، بينما كان قصده الحقيقي مهاجمتهم من الغرب بالقرب من الشواطئ البحرية.. والذي شجع اللنبي على الاعتقاد أن خطته ناجحة حذر الأتراك الدائم في وادي الأردن وغفلتهم عن تحصين الخط الغربي، وكل حركة كان يقوم بها في السلط وجوارها كان يقابلها العدو بحركة أخرى معاكسة، بينما في الخط الغربي مكان الخطر الحقيقي كان العدو غافلا لا قوة له ولا منعة.

وأراد اللنبي أن نتمم خطته بأن نشغل العدو بنشاط في جوار عمان، ونبهنا إلى الخطر قائلا أن النصر بالرغم من ظهور تباشيره لنا فإنه معلق بخيط ضعيف لأنه إذا عرف العدو خطتنا وانسحب من الشاطئ مسافة سبعة أو ثمانية أميال فقط، ثم انصب علينا بقواته من الداخل أفسد علينا الخطة وأوقعنا في حالة صعبة، إذ نضطر أن ننقل قواتنا من الشواطئ إلى وادي الأردن لمجابهته، وفي هذا من التأخير والخطر ما فيه، كما أن اللنبي حذرنا من تعريض الجيش العربي إلى كل خطر هو في غنى عنه.

وبعد تمام المخابرة مع اللنبي أسرعت إلى القاهرة في مصر، قاصدا أن

أذهب بعد ذلك إلى العقبة، ولكن جاءت الأخبار أن الأتراك قد انتصروا على ناصر في الحسا، وهم يفكرون في مهاجمة فيصل في أبي اللسان في أواخر شهر آب؛ أي حينما نكون في استعداد للزحف شمالا، وهذا الهجوم من جهة الأتراك يعرقل خطتنا كلها فجربت أن أدبر حركة أخرى تعوق الأتراك عن الهجوم لكي يتسع أمامنا الوقت فنسبقهم إلى الشمال، ورأيت أنه يجب إرسال فرقة من الجيش لمناوشة الأتراك حول أبي اللسان؛ فأبرقت إلى اللنبي بالأمر.

وبعد تبادل برقيات متعددة أرسل إلينا ضابطا إنجليزيا يقود ثلاثمائة جنديا لاستخدامهم في مناوشة الأتراك، وأوصانا ألا نقاتلهم في معركة كبرى لئلا نخسر فتمتد الخسارة إلى الساحات الأخرى، وأصر علينا بأن نناوشهم مناوشة فقط مدة شهر على الأقل إلى أن نتمم خطتنا..

ثم بعد زمن أطلعنا اللنبي على تفاصيل خطته؛ فقال: أنه ينوي القيام بالهجوم في التاسع عشر من أيلول، وطلب إلينا أن نزحف قبله بأربعة أيام على الأكثر، وعلى الأقل بيومين، وكانت كلماته لي:

"إن ثلاثة رجال وصبيا واحدا مسلحين بمسدسات فقط أمام درعا في السادس عشر من أيلول هي عندي أفضل من ثلاثة آلاف مقاتل بعد أو قبل ذلك بأسبوع".

وفهمت من ذلك أن اللنبي لم يكن يهتم لقوتنا الحربية، بل أراد استخدامنا لإشغال العدو فقط، فمن جهتي الإنجليزية كنت أوافق على فكر اللنبي، ولكن من جهتي العربية لم أرد أن يكون الجيش العربي خيالا

فقط؛ إذ أن ذلك يفقده احترامه لنفسه، كما أنه لا ينيله مطلبه عند قطف ثمار النصر الأخير.

ولهذا عزمت على الزحف بخمسمائة خيال مع مدفعية فرنسية جبلية عيار قطعها ٦٥ ومدافع رشاشة وسيارتين، وعدد من الجنود العمال لحفر الخنادق والأسرب وطائرتين وكشافة ممتطية الجمال؛ فأقف بها في الأزرق ثم في السادس عشر من أيلول نحيط جميعا بدرعا وندمر الخطوط الحديدية حولها، وبعد ذلك بيومين نعبر الخط الحجازي إلى الشرق، ونتربص هناك إلى أن نقف على أخبار اللنبي.

وحيطة للأمر بدأنا في ابتياع الشعير والقوت للحيوانات من تجار جبل الدروز وخزنناها كلها في الأزرق.

وكان نوري الشعلان يرافقنا بجماعة من قوم عرب الرولا، وهكذا عرب السردية والسراحين والحوارنة تحت قيادة طلال الحريدن. وقبل الهجوم العام دعا اللنبي ضباط الجيش العربي المقدمين ووزع عليهم الأوسمة والنياشين تشجيعا لهم واعترافا بالشجاعة التي أبدوها في حروب معان. وكان جعفر باشا من مستحقي النيشان من الدرجة الأولى؛ فذهب إلى فلسطين ليأخذه في حافلة وأقيم له مهرجان جميل جدا.

وتطوع نوري باشا السعيد لقيادة الحملة على درعا، ونظرا لشجاعته وحكمته أجيب إلى طلبه حالا، وابتدأ في اختيار أفضل أربعمائة جندي في الجيش، وبدأت الاستعدادات الحربية العسكرية وامتلأت المعسكرات مؤنا وذخائر وعتادا حربية، وعلت الجلبة والحركة استعدادا للزحف.

١٤ نفور وقتي بين فيصل وأبيه الملك حسين

ذكرنا للقارئ خبر قدوم فرقة من الجمالة لإشغال العدو مدة من الزمن، ريثما يتمكن الجيش العربي من القيام بالاستعدادات للهجوم على درعا، وقد قامت تلك الفرقة بالمهمة التي انتدبت لها تحت قيادة بكستن أحسن قيام، وبعد أن رافقها لورنس مدة شهر تقريبا في روحاتها وغدواتها وقادها أخيرا إلى جوار الأزرق حيث أمن عليها شر التيهان، قفل راجعا إلى الجنوب ليجتمع بفيصل ويطلعه على الحالة العمومية في كل مكان يعسكر فيه الجيش العربي.

فأخذ لورنس السيارات المصفحة وسار بها إلى أبي اللسان حيث كان فيصل معسكرا، وما طال الوقت حتى قدمت باخرة من جدة ميناء مكة حاملة بريد فيصل، وأول ما أخذه بيده كان جريدة القبلة جريدة الملك حسين الرسمية، ولما فض ختامها رأى في الصفحة الأولى منشورا ملكيا جاء فيه "إن قوما من البلهاء المجانين يلقبون جعفر باشا بالقائد العام للقوات العربية الشمالية، بينما ليس في الجيش العربي كله رتبة تناسب هذا اللقب، وأعلى رتبة قائد مائة (كابتن) وما الشيخ جعفر إلا كباقي الضباط يقوم بالواجب عليه"

وقد نشر الملك حسين هذا المنشور بعد أن عرف بالحفلة التي أقيمت لجعفر باشا في القدس، والتي قلد فيها اللنبي جعفر المذكور وساما عالي الرتبة، وكان فيصل غير عالم بما نشره أبوه فوقع عليه الخبر وقوع الصاعقة، وكان الباعث الحقيقي لنشر البيان الملكي قلق الملك حسين وخوفه من

الضباط العراقيين والسوريين وسكان القرى في الشمال من أن يستأثروا بالسلطة بأنفسهم بعد أن يجلو الأتراك عن سوريا، وعرف أنهم كانوا يحاربون ليس ليزيدوا في ممتلكاته، بل لكي يحرروا بلادهم من النير التركي.

ولما علم جعفر بالبيان الملكي تقدم إلى فيصل ورفع عريضة استقالته، وتبعه في ذلك عدد من الضباط؛ فألح عليهم لورنس ألا يهتموا لتصريح رجل ناهز السبعين من العمر وهو جالس في مكة منقطعا عن العالم، وغير عالم بما يجري فيه، وهكذا فيصل نفسه رفض استقالتهم قائلا أن أمر تعيينهم في مراكزهم صدر منه وليس من أبيه، وأن ما في البيان من قسوة اللهجة والتحقير واقع عليه لا عليهم.

ثم أرسل فيصل إلى مكة نبأ برقيا جوابا على ذلك البيان مخطئا فيه أباه؛ فورد إليه من مكة برقية أخرى أشد لهجة من البيان جاء فيها أن فيصلا أصبح خائنا متمردا، فأجاب فيصل مستقيلا من القيادة العامة؛ فعين الملك حسين زيدا؛ فرفض زيد التعيين حالا، وهكذا أخذت البرقيات تسير بين العقبة ومكة حاملة ما كان يختلج في صدر الملك الشيخ وابنيه فيصل وزيد، ونتج من كل ذلك وقوف الحركة في أبي اللسان، وسكنت الاستعدادات، وفي تلك الساعة خاطب دوني لورنس بالتليفون سائلا ما إذا كان هناك أمل لإرجاع العلاقات الودية بين الأب وابنه؛ فأجابه لورنس أن الأمل أصبح ضعيفا، ولكنه سيسعى جهده إلى إصلاح ذات البين، وإلى القارئ ما قاله لورنس عن نفسه في تلك الساعة.

"رجعت إلى نفسي في ذلك الموقف المحرج، ورأيت أمامي ثلاث طرق

يجب اختيار أحدها الأولى: الضغط الشديد على الملك حسين واضطراره إلى الرجوع عما جاء في البيان، والثانية: أن نتجاهل الأمر كله ونسير حسب ما نراه مناسبا دون أن نعتبر ما يقوله الملك الشيخ، والثالثة: أن ننادي بفيصل ملكا مستقلا عن أبيه.

وكان لكل واحدة من هذا الطرق محبذون ومقبحون، ولكن رأينا أنه الأفضل في الأول أن نخبر اللنبي بالأمر لعله يتمكن من تسوية الخلاف بالتي هي أحسن؛ فأبرقت إليه طالبا أن يتوسط في حل المشكل.

عرفت أن الملك حسين متشبث برأيه، وقد يطول الأمر مدة أسابيع قبل أن نضطره إلى الرجوع عما صرح به، ولو كنا كما في السابق لكان بوسعنا أن ننتظر عدة أسابيع، ولكن الآن أصبحنا على بعد ثلاثة أيام من الهجوم الكبير؛ فكان من اللازم السير في الحملة على درعا، بينما الدوائر السياسية في مصر تحل الأمر بما تراه مناسبا، وكان علي واجبات ثلاثة:

الأول: أن أخبر نوري الشعلان بأنني غير قادر على ملاقاته في الأزرق في الوقت الذي عينته له قبلا مع أن ذلك قد يفقدنا قوة نوري، ولكني فضلت ذلك على ترك جيش فيصل ومدافع بيساني الفرنسي.

والواجب الثاني: كان أن آمر بتسيير المؤن والذخائر قبل زحف الجيش لكي يصل الاثنان إلى الأزرق في وقت واحد.

والواجب الثالث: (والأهم) السير بالجيش في اليوم المناسب بعد أن نرجع إلى الضباط نشاطهم الذي أصبح الآن ضعيفا بسبب هذا الحادث؛

فاستعملت كل ما لدي من الحجج المقنعة، وكان نوري السعيد وهو في مقدمة الضباط يتلهب نشاطا للحرب، ولكنه بعد بيان الملك حسين خمدت فيه نيران نشاطه؛ فأقنعته بالسير والعمل، فقبل علي شروط أنه يسير معي إلى الأزرق فقط، فإذا رجع الملك حسين عن كلامه استمر في السير، وإلا ترك الحرب ورجع إلى الوراء.

وكانت عقدة العقد –كما يعرف القارئ – أن أرجع إلى فيصل منزلته الأولى، وإلا عبثا نحاول أن نهاجم درعا ودمشق، إن سقوط درعا بدون فيصل ليس مهما كسقوط دمشق لأن سقوط الأولى يساعد الجيش الإنجليزي على النصر النهائي، ولكن دخول فيصل إلى دمشق الشام ضروري جدا للحصول على ثمرات المشقات التي قاسيناها منذ بدء الثورة.

وكان اللنبي وولسن أثناء الزحف العربي يلحون على الملك حسين بالرجوع عما في البيان، وقد عزمت على أنه إذا فشلت المخابرات بين اللنبي والملك أدفع الحكومة الإنجليزية إلى معاضدة فيصل مستقلا عن أبيه وأدخل به إلى دمشق كأمير حاكم، وكان هذا سهلا علي سوى أنني لم أرد الالتجاء إليه إلا بعد أن أجرب الطرق الأخرى تجنبا لإيقاع الخلاف بين ابن وأبيه، خصوصا أن الثورة العربية منذ بدئها استمرت دون أن تشعر بشيء من الانقسام.

وكان الملك حسين يدلي بما لديه من البراهين مؤيدا موقفه الذي اتخذه غير فاهم ما لتداخله في أمور الجيش العربي الشمالي من التأثير الهادم لخططنا، وكان علينا أن نفهمه موقفه الحقيقي بصريح العبارة، وكان يجيب

كمن لا يصغي، وكانت رسائله البرقية ترد إلى مصر أولا، ثم تأتينا إلى العقبة ثم ترسل لتحلق بنا في طريقنا بواسطة سيارة خاصة؛ فكنت آخذ تلك البرقيات قبل أن يتلقاها فيصل، وأطلع عليها فإذا رأيتها شديدة اللهجة تزيد في شقة الخلاف شوهت كلماتها، وجعلت أولها آخرها، وآخرها أولها، ثم أدفع بها إلى فيصل فيرجعها مكتوبا عليها "مشوهة"، ولحسن الحظ لم تكن مكة لتعيد رسالة مشوهة، بل كانت كل مرة ترسل رسالة جديدة، فأتصرف بها كما أتصرف بالتي سبقتها إلى أن جاءت رسالة في أحد الأيام أولها عتاب ولوم وآخرها اعتذار وطلب السماح، فحذفت القسم الأول، ثم دفعت بالقسم الثاني إلى فيصل ولما اطلع عليه سر به جدا وجمع حوله ضباطه ثم تلاها عليهم وختمها بقوله "هذه البرقية قد انعقدت شرفنا من التحقير"

وبعد ذلك بثلاث ساعات كان الجيش يسير بنشاط؛ فركبت سيارة سريعة وسبقته إلى الأزرق لعلي أتمكن هناك من مقابلة نوري الشعلان، فأساعده على جمع قومه عرب الرولا ليشتركوا معنا في الهجوم على درعا.

مناوشات ناجحة

زحف الجيش من أبي اللسان –كما ذكرنا في المقال الماضي – وشبح الشقاق والخلاف مخيم فوقه؛ فسار يقدم خطوة إلى الأمام، ثم يرجع أخرى إلى الوراء، ولكن بعد أن أرسل الملك حسين برقيته الأخيرة إلى ابنه فيصل قائد الحملة العام، والتي اعتذر بها عن موقفه الماضي، انقلبت الحال ودبت في الجيش روح الحمية والنشاط فزحف تستحثه الآمال بالنصر وتدفعه عقيدته بأنه يحارب لأجل حريته.

وفي زحف الجيش نحو درعا عرجت فرقة منه على الخط الحديدي شمالي عمان قرب مكان يدعى أم طي، ودمرت هناك الجسور الثلاثة؛ فأمن بذلك على مؤخرته من الجيش التركي المرابط في عمان نفسها، وعرقل هجوم العدو على زيد الذي كان باقيا في جوار أبي اللسان.

وبعد مشقات وصعوبات واجتياز الخط الحديدي من الشرق إلى الغرب، ومن الغرب إلى الشرق، تمكن الجيش من الوصول إلى تل عرار الذي يشرف على السهل الواسع المنبسط، والذي تقع فيه محطات ثلاث هي أهم المراكز في يد العدو، وهي: درعا، والمزاريب، والغزالة.

وكان لورنس ينظر إلى هذه المحطات الثلاث فيراها أمامه غنيمة باردة، ثم ينظر ببصيرته إلى الشمال فيرى دمشق المقر العام للجيش التركي المرابط في سوريا وحلقة الوصل الوحيدة بين الفيلقين: الرابع، والسابع، وعلى

رأسيهما جمال باشا، وبين القسطنطينية عاصمة المملكة التركية، وإلى الجنوب فكان يرى عمان ومعان والمدينة المنورة، فيراها منفصلة عن كل مساعدة خارجية، ولا تلبث في تلك الحالة أن تستسلم صاغرة.

وإلى الغرب كان يرى القائد الألماني ليمان فون سندرس منفردا بقوته في الناصرة ونابلس ووادي الأردن، كان ذلك في السابع عشر من أيلول، وهو اليوم الذي عينه اللنبي، وكان هذا عازما أن يقوم بهجوم عام في التاسع عشر من الشهر المذكور.

رأى لورنس كل ذلك؛ فكاد يلمس بيده النصر الأخير.. نظر قواد الجيش العربي إلى درعا بواسطة النظارة المكبرة فرأوا مطارها يعج بالطائرات التي كانت تخرج منه استعدادا للمعركة، وكانت الحامية تخرج من مراكزها فتطلق بنادقها على الجيش العربي بانتظام تام: الصف تلو الصف، وكان بين الجيشين مسافة أربعة أميال فقط.

وانسل لورنس في تلك الساعة مع جماعة من الخبراء في الألغام، وأخذوا ينسفون الخط الحديدي، ولكن لم ينتظر الأتراك طويلا حتى أرسلوا فوق الجيش العربي طائرات أخذت ترمي عليهم القذائف؛ فوجه إليها بيساني مدافعه الرشاشة ونوري مدافعة من نوع هوتشكيس؛ فهربت الطائرات ثم عادت محلقة في الفضاء على مستوى أعلى لكي لا تصيبها قذائف المدافع، ولكن علوها الشاهق أفقدها صحة الرماية؛ فكانت لا تصيب إلا الصخور الصماء، وهذا ما ساعد الجيش العربي على حفر الخنادق للتحصن، ودس الألغام تحت الخط الحديدي..

وفي تلك الساعة والفضاء يملؤه أزيز الطائرات، رأينا طيارا إنجليزيا قادما من الأفق البعيد على متن طيارة تبيناها حين اقترابها، فرأيناها قديمة تكاد تسقط من تلقاء نفسها، ولكن طيارها كان شجاعا فدخل بها بين طائرات الأعداء التي تفرقت لتسبر غور عدوها الجديد، وتقف على مقدار قوته، ثم جدت في الطيران وراءه بقصد الفتك به.

وكان ذلك مساعدا لنا إذ خلا لنا الجو، ليس من قبيل الاستعارة، بل من قبيل الحقيقة؛ فجمع لورنس ثلاثمائة جنديا نظاميين، وأمرهم بالزحف إلى المزاريب ثم اتبع بهم جماعة من الفلاحين المتطوعين، واستعد هو للزحف وراءهم على رأس حرسه الشخصي لو لم يحدث أمر خطير منعه من ذلك، وهو أن الطيار الإنجليزي بعد هربه أمام الأعداء كما وصفنا سابقا عاد فظهر ثانية.

وعلى كل جانب من جانبيه الثلاث طائرات تراشقه بالرصاص، وهو يرد لها من البضاعة نفسها التي كانت ترسلها إليه، ثم أشار إلى لورنس بأن وقوده قد نفد؛ فهيأوا له مكانا وسقط إلى الأرض سالما؛ فأسرع لورنس إلى نجدته والعودة به إلى المعسكر على تل عرار.

وبعد ذلك زحف لورنس على رأس حرسه في صفين متوازيين إلى المزاريب، ولكن شاهدتهم طائرة تركية فهاجمتهم وقتلت جملين من الجمال، فترجل الراكبان اللذان قتل جملاهما واعتليتا متن جملين من جمال رفاقهما، وتحولت الفرقة في سيرها متفرقة هنا وهناك لكي لا تصيبها قذائف الطائرة فوصلوا إلى المزاريب مقصدهم.

ووجدوا درزي ابن دغني قد خف لاستقبالهم بالأخبار أن جيش نوري السعيد على مسافة ميلين إلى الوراء، فاستقوا لهم وجمالهم لأنه كان يوما حارا ثم استعدوا لهجوم آخر، وإذ عزموا على السير إلى درعا نفسها رأوا ذلك صعبا لأن الأتراك كانوا قد حصنوها جيدا، فولوا وجوههم شطر محطة أخرى تدعى تل الشهاب؛ فهاجموها واحتلوها ثم انصبت إليها أنهر من الفلاحين الحوارنة، وغيرهم للسلب والنهب فكانوا يكسرون الأبواب والشبابيك ولا يثنيهم شيء لا الأوامر ولا السلطة، واكتفى لورنس نفسه بأن سار مع يونغ وجماعة من أتباعهم لقطع الأسلاك التلغرافية ونسف الخط الحديدي.

وفي ذلك الوقت توجهت إليهم قاطرة من درعا وراءها عدد من الشاحنات المملوءة جنودا، ولما شاهدت الألغام تنفجر على طول الخط تراجعت إلى الوراء قانعة من الغنيمة بالإياب.

ولما عرف الفلاحون المجاورون بما حصل هرعوا من قراهم للالتحاق بالجيش العربي، طالبين إليه بأن يزحف إلى درعا في تلك الليلة، ولكن لم يرد قواد الجيش ذلك خوفا من أنهم إذا فشلوا في هجومهم وتراجعوا إلى الوراء يعرضون كل هؤلاء الفلاحين لسخط الأتراك، ولهذا قدموا لهم الأعذار ووعدوهم أنهم يزحفون إلى درعا عندما يرون أنفسهم قادرين على احتلالها والاحتفاظ بها، وكأن الفلاحين قد فهموا هذه الأعذار فاستكانوا ورجعوا كل إلى قريته، وبقي لورنس وجماعته يعدون العدة لهجوم آخر بعد أن يطلع على مواقف الفرق الأخرى في الجيش.

وفي صباح اليوم التالي بدأت الجيوش المرابطة في تل عرار ترد تترى إلى المزاريب، وكتب لورنس إلى جويس وجماعته أنه ومن معه من الجيش سيزحفون جنوبا إلى قرية "نصيب" ليكملوا الدائرة حول درعا، وأشار إليهم أن يتقدموا إلى أم طي وينتظروه هناك؛ لأنها كانت أفضل مكان للعسكرة؛ إذ أنها واقعة على مسافات متساوية بين درعا وجبل الدروز وصحراء عرب الرولا، فضلا عن أن المياه متوفرة فيها، وعزم لورنس على البقاء هناك إلى أن ترده أخبار اللنبي الذي كان في ذلك الوقت يهاجم الأتراك في فلسطين، واحتلال أم طي يفصل الفيلق الرابع المرابط في دمشق عن ذلك الذي يحارب في الجنوب.

فسار لورنس حسب الخطة التي وضعها، وبعد مشقات ومعارك ومناوشات تمكن من الوصول إلى أم طي البلدة التي جعلها متجه عسكره، وعندما وصل إلى أبوابها وجد جويس قد سبقه إليها حسب الوعد، وكانت أخبار انتصاراتهم تنتشر في تلك الأنحاء بسرعة فائقة فأتى إليهم السكان من كل حدب وصوب ناقمين على الأتراك وطالبين الانضمام إلى الجيش العربي.

وكانت الطائرات مدة إقامة الجيش العربي في أم طي، تهاجمه مهاجمة متواصلة، ولكن دون أن تنال منه مأربا لأنها كانت تخاف مدافعه فتعلو إلى طبقات عالية إلى درجة تفقد معها الدقة في إلقاء القنابل فتخطئ المرمى.

برهن الجيش العربي للأتراك في احتلال المحطات حول درعا أن المطار وكل ما أقاموه من الحصون حولها لم ينفعها شيئا، وأصبحت بعد ذلك

معرضة للسيارات الحربية المصفحة، وبعد أن استقر المقام بالجيش العربي في أم طي مكث زمنا قصيرا طلبا للراحة التي كان في مسيس الحاجة إليها، خاصة لورنس الذي كان قد أخذ منه التعب كل مأخذ فنام دون أن يقلقه أزيز الطائرات وقذائفها التي كانت تلقيها من وقت إلى آخر..

وفي المقال القادم نصف للقارئ الزحف على درعا نفسها التي لم يطل بعدها الوقت حتى انكسر الأتراك شر كسرة، ودخل فيصل ولورنس إلى دمشق منتصرين.

سقوط درعا

كانت أم طي القرية التي عسكر فيها الجيش العربي مركزا حربيا مهما؛ لأنه يشرف على الخطوط الحديدية الثلاثة التي تلتقي في درعا، غير أن أهمية هذا المركز كانت تقتضي صعوبات جمة في حمايته والمحافظة عليه، خصوصًا أنه كان واقعا على مسافة اثنتي عشر ميلا من درعا حيث كان لدى الجيش التركي تسع طائرات تقدر بكل سهولة أن تحلق فوقه أيه ساعة أرادت، وتلقي عليه القذائف.

وهذا ما كانت تفعله حتى عيل صبر لورنس وقرر على الذهاب إلى فلسطين لطلب قوة هوائية ترد عنهم شر الطائرات التركية.

وبعد أن سافر لورنس إلى الأزرق، وقابل فيصلا، ذهب إلى محل القيادة العامة ليقابله اللنبي، وهنا نترك الكلام للورنس نفسه إذ قال:

دخلت على اللنبي؛ فوجدته مرتاحا لما يقوم به جيشه في الهجوم العام، وكان أحد أركان حربه يأتي إليه كل خمس عشرة دقيقة يبشره بنصر جديد أحرزته جيوشه فكانت تبرق لأساريره بشرا.

ثم حول نظره إلي وأخبرني عن خططه المقبلة، فقال: إن فلسطين أصبحت في حوزتي الآن، وقد تراجع العدو إلى الشمال ظانا أننا سنتركه ينسحب بانتظام، ولكن لا فقد أرسلت على أثره شيطور على رأس النيوزيلنديين ليلحق به من الأردن إلى عمان، وبارو على رأس الجيش

الهندي ليتبعه من الأردن إلى درعا، وشوفل على رأس الأستراليين ليقتفي أثره من الأردن إلى القنيطرة، ثم يجتمع هؤلاء الثلاثة في جيش واحد، وينضم إليهم الجيش العربي أيضًا، ويدخل الجميع مدينة دمشق التاريخية المشهورة.

ثم سألني عن موقفي في أم طي؛ فقلت له أننا عاجزون أمام طائرات الأتراك، وحالا خصص لي ثلاث طائرات ترافقني إلى أم طي لتقاوم القوة الهوائية التركية.

وفي طريقي راجعا مررت بفيصل وأخبرته بكل ما جرى؛ فطار فرحا لوقوفه على أخبار اللنبي وانتصاراته، ثم أوعزت إليه وإلى نوري الشعلان بالسفر إلى أم طي لكي يكونا على مقربة من دمشق فيدخلانها مع الجيش المنتصر؛ فذهبنا إلى أم طي في سيارة قوية ولما وصلنا إلى القرية وجدناها خالية.

وبعد التحقيق وجدنا أن الجيش العربي بسبب مضايقة الطائرات له قد انسل خفية تحت جناح الليل إلى تل السراب، وتربص هناك منتظرا قدوم الطائرات الإنجليزية.

ولم يطل الوقت حتى قدمت الطائرات: ثلاث منها صغيرة، وواحدة كبيرة جدا كانت تحمل المؤن والذخائر للطائرات الأخرى، وبعد مناوشات ومعارك هوائية لا فائدة من وصفها هنا لم تعد الطائرات التركية لتزعجنا فرجعنا إلى تنظيم جيشنا استعدادا للهجوم على ردعا من جهات ثلاث.

واقترح فيصل أن نضم إلى الجيش رجال نوري الشعلان المرابطين في الأزرق؛ فأصبح عدد الجيش كله نحو أربعة آلاف مقاتل.

وكان أول عمل قمنا به قبل الهجوم أن أخذنا في تدمير الخطوط الحديدية لكي نفصل الفيلق التركي الرابع عن القوة المحاصرة في درعا، وبعد عناء شديد تمكنا من قطع الخطوط جميعها بطريقة يستحيل إصلاحها في وقت قصير، ثم عقدنا مجلسا حربيا قررنا فيه: أن نسير شمالا مارين بقرية تل عرار فنجتاز الخط الحديدي، ثم نلقي عصا الترحال في قرية الشيخ سعد، وهي تقع بين درعا والمزاريب من جهة دمشق ومن جهة أخرى، وفيها مياه كافية للشرب، فوافق طلال على رأيي هذا، وذهب نوري الشعلان مذهبي..

ورأى ناصر ونوري السعيد ما رأيت؛ فاتفقت كلمتنا وسرنا في صباح اليوم التالي إلى أن دخلنا قرية الشيخ سعد بعد مناوشات عديدة مع المفرزات والحاميات التي كانت تحمي بعض المواقع على طول الخط الحديدي، ثم انقسمنا إلى ثلاث فرق: الفرقة الأولى: تحت قيادة طلال يهاجم بها بلدة أذرع، والثانية: تحت قيادة عودة يهاجم بها خربة الغزالة، والثالثة: تحت قيادة نوري يهاجم بها درعا نفسها..

وما أن جن الليل، ثم انقشع عن صباح اليوم التالي، حتى بدأت أخبار النصر تأتينا من كل جانب فاستولى طلال على أذرع، وعودة على خربة غزالة، ونوري على درعا التي بعد أن قرر الألمان والنمساويون والأتراك على هجرها أعملوا فيها النيران.

وانتشرت أخبار الجيش العربي في كل الأنحاء وتغنى الناس بأسماء نوري وطلال وناصر وعودة، وزاد فرحنا بأخبار اللنبي التي جاءتنا معلنة اجتياح الجيش الإنجليزي فلسطين كلها، كما أنه أتتنا الأخبار أن بلغاريا قد استسلمت للحلفاء بلا قيد ولا شرط، وإذ كنا لا نعرف أن بلغاريا كانت عدوة لنا لم نتأثر بالخبر كثيرا.

وكنا نترقب الأتراك بعين ساهرة فإذا عثرنا على جماعة منهم منهزمين أرسلنا فصيلا من الجيش للإيقاع بهم، وهكذا مرت عدة أيام نقطع على العدو سبله فنأسر من يستسلم ونقتل من يستقتل، إلى أن أتانا ذات يوم خبر مفاده أن الجيوش الألمانية والنمساوية والتركية قد انسحبت تاركة درعا في جيشين يبلغ الواحد ستة آلاف مقاتل والآخر ألفي مقاتل، فتركنا الأول لشأنه لأنه يفوقنا عددا وعزمنا على مهاجمة الثاني.

وعلمنا أيضًا أن هذا الجيش سيمر في قرية طفاس، وهي قرية طلال الذي قلق لذلك وخاف على أهله من جيش الأتراك المنهزم؛ فطلب إلي أن نسرع إلى عرقلة سير هذا الجيش قبل وصوله إلى القرية المذكورة؛ فلبيت الطلب وأمرت الجيش العربي بملاحقة الأتراك المنهزمين، وقصدنا قرية طلال فرأينا الجيش التركي قد سبقنا إليها وأعمل في بيوتها النار وفي سكانها السيف.. وكدنا ندخل القرية من جهة حتى انسحب الأتراك من الجهة الثانية، ولما وصلنا إلى البيت الأول ودخلنا الأزقة رأينا النساء مهشمات ومطروحات على الأرض.

وكذلك الأولاد والشيوخ، ثم ركضت إلينا ابنة صغيرة معفرة الوجه

دامية العنق، ووقفت أمام طلال، وقالت له "أبي لا تضربني" فترجل طلال وركع أمامها، ولكنها خافت لسرعة حركته فمشت بضع خطوات ثم سقطت بلا حراك بها.

ولا تسل عن حالة طلال في تلك الساعة فإنه أخذ يرغي ويزيد كالبركان الثائر، وشاركته في عواطفه فقلت لمن معي: "إن أفضلكم من يأتيني بأكبر عدد من القتلى الأتراك الذين أمامنا".

وسرنا إلى الأمام نتعقب الأتراك المنهزمين بانتظام.

وما هي إلا هنيهة حتى رأيت طلالا قد وقف، وكأنه صخر، وتفرس في الأتراك لحظة، ثم أخذ كوفيته من على رأسه ووضعها في فمه واستحث جواده الذي اندفع به إلى الأمام كأنه الشهاب، وامتنع الجيشان عن إطلاق الرصاص.

ووقفا ينظران ماذا يكون من أمر هذا الرجل، ولما أصبح على قيد خطوات معدودة من العدو وقف وسيفه بيده وقال "أتاكم طلال، أتاكم طلال" ولكن قبل أن يصل إلى أول رجل أمطره العدو وابلا من الرصاص فجندله وفرسه إلى الحضيض.

فأكبرنا شجاعة طلال وعزمنا على الأخذ بثأره، فاستحثثنا المطايا وراء الأتراك الذين كانوا يجدون في السير وكنا نقتل منهم من سقط من الجوع أو التعب.

وكان عودة أحد قوادنا قد استأسد عندما شاهد طلالا يموت ميتة

الأبطال، ورجعت إليه حميته ونشاطه، وقام حول الأتراك بحركة أجبرهم معها على الالتجاء إلى أرض صعبة، ثم فرق تجمعهم وهجم عليهم برجاله الذين أعملوا فيهم السيف بلا شفقة ولا رحمة.

وهكذا كنا نرى فرقا من الجيش التركي منهزمة من هنا ومن هناك، وكنا لأول مرة في الحرب لا نأخذ أسرى بل نقتل من وقعت عليه أيدينا.

وفي هذه المناسبة لا بد لي من أن أبدي إعجابي بالفرق الألمانية التي كنا نعثر عليها، فقد كانوا إذا هوجموا جمدوا في وجه العدو بصمت وهدوء وسكون إلى أن يموت النفر الأخير منهم، فضلا عن أنهم بعيدون عن أوطانهم مسافة ألفي ميل على أقل تقدير، في بلاد لا يعرفون لغة أهلها وعاداتهم.

سقطت درعا أمام الجيش العربي والإنجليزي متحدين، ودخل ناصر إلى بيت الحكومة وأخذ يعين حراس الأمن والحكومة المؤقتة، واكتفى القائد الإنجليزي بارو بأن يترك كل شيء للعرب، ويساعد فقط عندما يطلب إليه ذلك لكي لا يحصل نفور أو خلاف بين الجيشين.

وهكذا أخذت القوات الحربية العربية والإنجليزية تجتمع من كل حدب وصوب حول درعا مستعدة لدخول دمشق، وكان حظنا أن عثرنا في مسيرنا على بقية من الفيلق الرابع تبلغ الألفين عدا، ولما كنا أقل منها كثيرا عولنا على مناوشتها إلى أن تأتي الفرقة الإنجليزية التي كانت تسير وراءنا بهدوء وانتظام، فتطوع ناصر وعودة لمهاجمة العدو ومنعه من السير ورجعت إلى قائد الفرقة الإنجليزية أخبره بالأمر، فأبى إجابة طلبي خوفا من اضطراب

جيشه، فلم أر رأيه في ذلك، وخفت على حياة ناصر وعودة؛ فأسرعت أفتش عن قائد أعلى إلى أن لقيت الجنرال كريغوري فأخبرته بالأمر، وحالا أرسل فرقة من الخيالة انضمت إلى الجيش العربي وهاجمت الأتراك هجوما أتوا فيه على آخر نفر في الفيلق الرابع الذي استغل الجيش العربي مدة سنتين متواليتين.

وفي المقام القادم نأتي على وصف دخول جيوش الحلفاء إلى دمشق، وعلى رأسها فيصل ولورنس.

سقوط دمشق وتأليف حكومة مؤقتة فيها

والآن وقد وصلنا إلى الحلقة الأخيرة من مغامرات لورنس وفيصل في الصحراء، لا نرى أمامنا أفضل من وصف لورنس نفسه دخول الجيش العربي إلى دمشق، وتأليف حكومة وقتية فيها، وإلى القارئ ما جاء به لورنس:

بعد سقوط درعا توجهنا إلى دمشق، ولما وصلنا إلى الكسوة كانت الشمس قد مالت إلى المغيب، وبدأ الظلام يسدل حجبه، فاضطررنا إلى قضاء تلك الليلة في الكسوة لأن الطريق كانت خطرة، ولم نرد أن نقتل خطأ على أبواب دمشق بعد أن قاسينا الأمرين لكي ندخلها منتصرين.

كان اللنبي بخطة حربية قد أرسل فرقا من جيشه إلى شمالي دمشق وغربيها قبل أن يدخلها الجيش القادم من الجنوب؛ فكان على الضباط العرب ولورنس واحد منهم أن ينتظروا قدوم القيادة الإنجليزية لأن هكذا كانت إرادة اللنبي أن يشترك الجيشان العربي والإنجليزي في الدخول إلى دمشق، وما كان على الضباط العرب إلا القبول بهذا لأنهم من اللنبي كانوا يستمدون قوتهم فبالطبع كان يأمل منهم أن يحترموا إراداته.

وكان علينا أن نهيئ المدينة لاستقبال الجيش الإنجليزي دون مقاومة، ولم يبق لدينا سوى ليلة واحدة لهذا العمل، فلما خيم الغسق أرسل ناصر فارسا من عرب الرولا إلى المدينة لكي يُطلع لجنة فيصل على حركات

الحلفاء خارج المدينة، فطلب الفارس علي رضا رئيس اللجنة أو شكري الأيوبي معاونه ليخبرهما أن الحلفاء في الخارج يقدمون لهما المساعدة نهار الغد إذا هما ألفا حكومة مؤقتة حالا، وفي الحقيقة أن الحكومة المؤقتة كانت قد تألفت الساعة الرابعة من ذلك النهار، ولكن كان علي رضا متغيبا إذ أن الأتراك ولوه قيادة فرقة ما، بينما كانوا منهزمين من وجه الجيش الإنجليزي في الجليل؛ فقام مُحَمَّد سعيد الجزائري وأخوه عبد القادر، ومن معهما من الرجال والأتباع وأظهروا ميلهم إلى شكري الأيوبي خدعة، ورفعوا العلم العربي فوق السراي، بينما كانت فرق الأتراك والألمان تودع المدينة وتلقي عليها النظرات الأخيرة.

وإذ أراد ناصر دخول المدينة ليلا أقنعته أنه أفضل له أن يبقى إلى الصباح ليدخلها كقائد منتصر؛ فقبل نصيحتي واكتفى بأن أرسل فرقة من الجيش لمساعدة شيوخ عرب الرولا الذين كانوا في المدينة، وفي منتصف تلك الليلة عندما انفرد كل منا للراحة والنوم كان من رجالنا في المدينة نحو أربعة آلاف مقاتل.

ولكن كيف ننام وأمامنا دمشق تلك المدينة التي حاربنا للدخول إليها سنتين كاملتين، فكنا ننظر إلى جهتها وقلوبنا تطير شوقا إليها، وكان الألمان والأتراك حين تركوها قد أشعلوا فيها مخازن المتفجرات؛ فكنا نرى في الجو فوقها أعمدة من نار، ونسمع هزيم أصوات الانفجار حتى خلنا أننا سندخلها وهي رماد وخراب.

وفي الصباح الباكر أسرعنا على متن سيارة إلى تل يشرف على

دمشق، ولم نشأ أن نتطلع شمالا لئلا نرى المدينة أثرا بعد عين، ولكن شد ما كان فرحنا عندما رأيناها سالمة آمنة وسط جناين غناء ينساب فيها نهر جميل، وكأن ضوضاء ذلك الليل قد خمدت ولم يبق من آثارها سوى عمود دخان قاتم يتصاعد من مستودع محطة القدم حيث ينتهي الخط الحجازي. استأنفنا المسير نحو دمشق، وكنا نرى الفلاحين خارجين جماعات جماعات لحرث بساتينهم، وما هي إلا هنيهة حتى استوقفنا أحد الخيالة وبيده عنقود من العنب وقال "البشرى لكم، دمشق تحييكم وترحب بكم" وكان هذا الفارس رسولا إلينا من شكري الأيوبي.

وإذ كان ناصر ونوري الشعلان على بعد بضعة أذرع منا رجعنا إليهما، وأبلغناهما الأخبار السارة، فطلبا إلينا أن يسبقانا إلى دمشق على ظهر فرسيهما، فطلبنا لهما السلامة، وراقبناهما يختفيان أمامنا تحت غبار سنابك مطيتيهما، وأما أنا وسترلين فانتحينا ناحية ساقية ماء فحلقنا لحانا وغسلنا وجهينا، ثم استأنفنا السير نحو دمشق، ولما دخلناها اجتزنا الشوارع إلى أن وصلنا إلى بيت الحكومة على ضفاف بردى، وكانت الأسواق مزدحمة وكذلك الشرفات والشبابيك، والمزدحمون يهتفون للحلفاء وبعضهم يذكرون أسماءنا.

دخلنا بناية الحكومة؛ فرأيناها تعج بالرجال الذين كانوا يتدافعون بالأكتاف لضيق المجال، وفي وسط الجدال كان يؤيد موقف رئيسه حتى اختلط الحابل بالنابل، وعلا الصياح، ولما دخلنا قاعة الاستقبال وجدنا في صدرها ناصرا ونوري الشعلان، وإلى جانبهما عبد القادر الجزائري عدوي

القديم، وأخوه محمد سعيد؛ فأخذتني الدهشة من وجود هذين الرجلين هناك، وحالا نهض محمد سعيد الجزائري، وقال أنهم أحفاد الأمير عبد القادر الجزائري – ومع شكري الأيوبي – قد شكلوا الحكومة، وبايعوا الحسين ونادوا به "ملك العرب"، وكان ذلك في اليوم السابق على مسمع من الألمان والأتراك المنهزمين، فلما سمعت هذا الكلام ملت إلى شكري الأيوبي الذي كان يكرمه الشعب الدمشقي – ليس لأنه بارع في السياسة بل لأنه قاسى من جمال باشا واضطهاده له ما جعله بمثابة شهيد في نظر أبناء قومه – وسألته عن الأخوين فقال أنهما وحدهما وقفا في جانب الأتراك ضد العرب إلى أن عرفا بقرب رحيلهم، ثم جاءا على رأس أتباعهما، ودخلا عنوة على اللجنة العربية، وتوليا الأمور كما يشاءان.. ولما سمعت هذا الكلام التفت إلى ناصر مشيرا إليه من طرف خفي أن يضع حدا لادعاءات هذين الأخوين، ولكن في تلك الدقيقة علت الجلبة والصياح بين القوم المجتمعين، وانقسم الجمع إلى قسمين تاركين فسحة رأينا فيها عودة أبا طي وسلطان باشا الأطرش يقتتلان، وأتباع كل واحد يستعدون للانتصار كل لرئيسه؛ فتدخلنا في الأمر وأبعدنا المتقاتلين، ثم رجعت إلى الغرفة الداخلية لأسير في تأليف الحكومة الجديدة؛ فرأيت الجزائريين، وناصرا قد اختفوا إذ أن عبد القادر دعا ناصرا إلى بيته لشرب المرطبات والراحة.

فلم يرقني ذلك، وعزمت على تأسيس حكومة قوية التأثير منذ الساعة الأولى؛ فخرجت أجول في أسواق المدينة، وكانت الشوارع أشد

ازدحاما من الأول، وأصوات الهتاف تعلو من كل جانب مرددة الثناء على الجيش العربي، ومعلنة بفخر أسماء: فيصل، وناصر، وشكري، ولورنس.. ولما بلغت إلى البوابة الشرقية ثم انثنيت إلى حي الميدان تسربت إلي إشاعة أن شوفل قادم إلى دمشق؛ فخرجت للقائه وأخبرته أن الحكومة غير قادرة أن تنظم عملها قبل يوم الغد، ورجوت منه أن لا يدخل برجاله إلى المدينة لئلا تحدث مجزرة هائلة لم تعرف مثلها المدينة منذ سبعمائة سنة. ثم انسللت خفية إلى دمشق ودخلت بيت الحكومة فوجدت الجزائريين وناصرا لم يعودوا، فأرسلت في طلبهم فقيل لي هم نيام – وهكذا كان يجب أن نكون نحن أيضًا – ولكن كنا جالسين إلى طاولة في بيت الحكومة نأكل الغداء جافا، ثم أرسلت رسولا آخر وأوصيته أن يلح في الطلب، وما هي إلا هنيهة حتى جاء أحد أبناء عم الجزائريين، وقال: "ها هم قادمون"؛ فعرفت أن تلك كذبة فقلت له: "حسنا فإن في نصف ساعة سأجلب إلى هنا جيشا إنجليزيا يأتيني بهم مرغمين" فقفل مسرعا، ثم التفت إلي نوري الشعلان، وقال: "وماذا تريد أن تفعل؟" فقلت له: "أريد أن أخلع الجزائريين، وأضع شكري الأيوبي مكانهما إلى أن يأتي فيصل"، وقصدت أن أفعل ذلك بهذه الطريقة اللطيفة لأنني لا أريد أن أغضب ناصرا، فضلا عن أنه ليس لدي قوة من الرجال أنفذ بها أوامري إذا رفض الجزائريان قبولها، فقال نوري الشعلان: "أو لا يأتي الإنجليز إلى المدينة؟" قلت: "دون شك يأتون، ولكن المهم أنهم لا يخرجوا منها بسهولة" فافتكر هنيهة ثم قال: "إن رجالي تحت أمرك تصرف بهم كما تشاء"

وخرج فجمع رجاله، وأوصاهم بالطاعة لي، وكذلك جمعت حرسي حولي، فوقفوا متأهبين للعمل، ولما جاء الجزائريان ورأيا الحالة شديدة سكتا، ولم يحركا ساكنا، وبصفتي نائبا عن فيصل أعلنت أن حكومة الجزائريين المدنية ملغاة، وعينت شكري باشا الأيوبي نائب حاكم المدينة العسكري، ونوري السعيد قائدا للجيش، وعزمي معاونا له، وجميلا مدير الأمن العام. فلما سمع عبد القادر هذا الإعلان شتمني قائلا: أنني مسيحي إنجليزي، والتفت إلى ناصر لكي ينصره علي، ولكن مسكين ناصر فإنه قد خسر بالتجائه إلى الجزائريين الأعوان والأصحاب فلم يحر جوابا، واستمر عبد القادر يرغي ويزبد ويشتم، وأنا لا أجيبه بكلمة، وكأن سكوتي قد زاد في غضبه؛ فنهض إلى وسط الغرفة شاهرا سيفه يقصد شرا، فهب عودة وأمسكه وفي عينيه شرر الغضب، وفي أصابع يديه قوة الأسد؛ فهدأت أنفاس عبد القادر، ثم ساد السكوت عندما تكلم نوري الشعلان، وهو مطرق إلى الأرض قائلا: أن عرب الرولا كلهم تحت أمر لورنس، ولا جدال في ذلك.

فلما سمع الجزائريان ذلك خرجا من القاعة يتعثران بأذيال الفشل والخيبة، ثم رجعنا إلى العمل والتنظيم وهنا رأينا صعوبات جمة.. كيف لا وكان علينا أن نحول تلك الحماسة الثورية المشتعلة في صدور الثوار إلى السلام والسكينة والأمن، وكانت الصعوبة لدى فيصل ترك الأصدقاء الذين ناصروه في الحرب لعدم مقدرتهم على الإدارات المدنية، ولكن بعد عمل شاق كانت دمشق في ذلك اليوم في قبضة حكومة منظمة لها بوليسها

وإدارة صحتها وغير ذلك من الدوائر، ثم بدأت الجيوش تتدفق إليها من كل حدب وصوب.

وبعد أن سارت الأمور في مجاريها الطبيعية في وقت قصير، اختفى لورنس عن المسرح ليعيش سرا من الأسرار في القاع الشرقية، بعد أن رافق الأمير فيصل والوفد العربي إلى باريس مطالبين بالشروط التي وعد بها الحلفاء العرب. وفي المقال القادم نأتي على الحلقة الأخيرة من هذه السلسلة ذاكرين فيها ما حدث للورنس بعد ذلك، وكيف رجع إلى الاختفاء بعد هذه الأعمال العظيمة.

لورنس بعد الثورة العربية

أنهينا في المقال الماضي وصف الجهود والمغامرات التي قام بها لورنس أثناء الثورة العربية، مبتديا من جدة في سنة ١٩١٦ إلى أن انتهى بدمشق في سنة ١٩١٨ حين دخلها بجيوشه العربية والإنجليزية دخول المنتصر، ورأى لورنس بثاقب نظره أن الطريق لم تمهد تماما أمام العرب للبلوغ إلى غايتهم التي كانوا ينشدونها، والتي لأجلها ثاروا في وجه الأتراك، ولهذا كان غير واثق من النتيجة كل الوثوق.

كما أنه كان يعلم تمام العلم أن الحلفاء قد وعدوا العرب بمنحهم استقلالهم في الجزيرة وسوريا وفلسطين والعراق وشرقي الأردن إذا هم استمروا في ثورتهم في وجه الأتراك إلى أن يجلوهم عن هذه البلدان، ولكنه رأى في الوقت نفسه أن الحلفاء ينوون غير ما وعدوا به، ولهذا قرر الذهاب إلى باريس مع الوفد العربي ليساعدهم في المعارك السليمة، كما ساعدهم في المعارك الحربية، وكان على رأس الوفد العربي الأمير فيصل قائد الثورة العام..

وعندما انتهى مؤتمر السلام رجع الوفد إلى بلاده حائزا على بعض مطالبه؛ إذ أن سوريا شطرت إلى شطرين انتدبت فرنسا على الشطر البحري وهو لبنان، وإنجلترا على فلسطين والعراق، وأعطى ما بقي للعرب فنودي بالحسين ملكا على الحجاز، وبفيصل ملكا على عرش سوريا، ولكن

قضت السياسة بأن يغادر فيصل دمشق فتركها مضطرا أمام وجه الجيوش الفرنسية.

وكأن هذه النتيجة لم ترق لورنس؛ ففضل الانزواء في خلوة لا تصل إليه معاتبة العرب بالعهود التي كان الحلفاء قد قطعوها معهم بواسطته، كما أنه رفض كل الأوسمة التي قدمها إليه الحلفاء، حتى أن رجال أمته أرادوا أن يقدموا له "وسام فيكتوريا"، وهذا أعلى وسام تمنحه إنجلترا لأبطالها، ولكن لورنس رفض الوسام ولقب الفروسية وكل المراتب العالية التي قدمت إليه، واختفى عن الأبصار فسكن في إحدى الغرف في مدينة لندن دون أن يعلم به أحد، غير أنه لم يطل الوقت حتى عرف به مراسلو الجرائد والمصورون فأخذوا يطاردونه من مكان إلى آخر، وهو يهرب من وجوههم تخلصا منهم ومن أسئلتهم.

وأخيرًا انتظم في سلك أساتذة أكسفورد حيث عين أستاذا بحاثا، واتخذ من منزله الجديد صومعة هو ناسكها؛ فكان ينام في النهار ويعمل في الليل لكي يتخلص من زائريه الكثيرين، وانصب في ذلك الوقت على تأليف كتابه المشهور الذي يصف فيه رحلاته ومغامراته في البلاد العربية، والذي اعتمدنا عليه كثيرا في كتابة هذه المقالات.

وإذا كان لورنس على وشك الانتهاء من تأليف كتابه، حمله يوما في حقيبته وسافر من أكسفورد إلى لندن لقضاء بعض الأشغال، وإذا كان في طريقه راجعا أغفل عن الحقيبة هنيهة فسطا عليها لص وهرب بها فكان على المؤلف أن يعود فيضع الكتاب مرة أخرى.

وفي سنة ١٩٢١ أقنعته الحكومة الإنجليزية بقبول مركز في وزارة المستعمرات كمستشار في الشؤون العربية؛ فقبل المركز لمدة سنة فقط، وقام بالعمل الذي ألقي إليه أحسن قيام، ويقولون أن نجاح فيصل في اعتلاء عرش العراق راجع إلى لورنس الذي كان في ذلك العهد مستشارا في الوزارة الخارجية.

ولما انقضى اليوم الأخير من تلك السنة وضع لورنس قبعته على رأسه وخرج من وزارة المستعمرات واختفى عن العيان، إلى أن تسربت إشاعات عنه تقول أنه عاد فانتظم في سلك جيش الطيران الإنجليزي كنفر بسيط متخذا له اسما جديدا، ولما عرفت هويته في جيش الطيران اختفى مرة أخرى عن أصدقائه والمعجبين به.

وفي أحد الأيام جاء إلى فرقة المدفعية شاب يطلب الدخول فيها، ولما سئل عن اسمه أجاب أن اسمه "مستر شو" فقبل وأصبح كغيره من أفراد الفرقة، ولكن حدث أن أحد الجنود، وقد رأى صورة لورنس في جريدة ما، وعند رؤيته هذا الجندي الجديد لاحظ الشبه بين الاثنين، فثارت في رأسه الوساوس، وأخذ يدقق في مراقبة رفيقه الجديد إلى أن رأى يوما ما غلافا تحت وسادة "الجندي شو" مكتوبا عليه "الكولونيل توماس لورنس"، فكان ذلك قاضيا على جهود لورنس في العودة إلى الخفاء.

وأما اتخاذ لورنس اسم "شو"؛ فله قصة لا بأس من ذكرها، وهي أن لورنس والكاتب الإنجليزي المشهور "برنارد شو" صديقان حميمان، وإذ كان الأول عند صديقه يشرب الشاي دخلت سيدة وجلست مع

المدعوين، ولما رأت الشاب لورنس ظنته ابن المستر شو؛ فقالت له ولامرأته: "إن علامات الذكاء تظهر على وجه ابنكما"؛ فضحك لورنس لهذا الكلام، ودعا نفسه بعد ذلك "المستر شو"، ثم عاد لورنس واختفى مرة أخرى إلى أن ظهر كتابه المشهور "الثورة العربية في الصحراء".

ومما يروى عنه أنه بينما كان تلميذا في جامعة أكسفورد اتفق مع أحد أصحابه على أنه إذا قام أحدهم بعمل عظيم في الحياة يبرق لرفيقه ليحضر إليه ويشاركه في أفراحه، وبعد انتهاء الثورة العربية الكبيرة لم يدع لورنس صديقه اعتقادا منه أن كل هذه الأعمال ليست ذات أهمية، ولكن في سنة ١٩٢٠ تلقى صديق لورنس رسالة برقية جاء فيها "احضر قد علمت شيئا" فذهب الصديق إلى لورنس.

ورآه قد أكمل بناء بيت صغير في إحدى المزارع حيث أراد أن يعيش بسلام بعيدا عن ضوضاء المدنية والحركة السياسية، وكان بناء ذلك البيت في نظره أهم من الثورة الكبيرة التي قاد جيوشها في وجه الأتراك كما ذكرنا في الصفحات المتقدمة.

وبسبب الحوادث الأخيرة في فلسطين والبلاد العربية قد توجهت الأنظار نحو لورنس؛ فإذا به قد عاد إلى الاختفاء، وهذا ما دفع الكثيرين إلى الاعتقاد أنه يتجول الآن في البلدان العربية يتسقط الأخبار للوزارة الخارجية في دولته ويرشدها إلى الخطوات التي يجب عليها السير بموجبها، حتى أن لول توماس صديقه ورفيقه في البلاد العربية يخامره الاعتقاد أن لورنس في الشرق الأدنى يراقب الحوادث الفلسطينية والعربية عن كثب،

وهو يتصوره متجولا بين زعماء الصحراء مفاوضا ومساوما إلى أن تتم الصفقة.

على أن كل هذه التكهنات عن مقر لورنس الآن لا تخرج عن حيز الظن، ولكن لا بد أن تكشف لنا الأيام القناع عما يتستر به هذا البطل الخفي.

الفهرس